٥٤٢

دار م. النحاس

542

HARLEQUIN

عبير

قلوب

www.elromancia.com

مرمورية

حب في الادغال

جنيفر تايلور

حب في الادغال

جنيفر تايلور

لا يمكننا تغيير أي شيء، يا غابي. فانت لن تتغيري. لقد أتى كل منا من بلد مختلف.

كان دويل يلهو بالخطر بكل صلابة وخشونة... ولم يكن لديه وقت لفتاة صغيرة غنية مدللة، ومن اللحظة التي نزلت فيها غابرييل من الطائرة، بدا واضحاً انها استرعت انتباهه ثروتها المميزة، فكيف له أن يعلم أنها تخفي في اعماقها ضعفاً؟ ولكن غابرييل صممت على مواجهة التحدي. لقد احدثت غطرسته وكبرياؤه ردة فعل في نفسها، قوية... ولكن اهذا بدافع من الغضب؟

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - مصر: ٤ جنيه - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال.

«هيا، انهضي فهناك عمل أمامنا.»

كانت لهجة دويل قاطعة، فأجابت غابي: «عمل؟ ما هذا الذي تتحدث عنه. ربما غاب عن ذهنك أيها السيد، اننا الآن معزولون في وسط الأدغال. فما الذي تقترح علي عمله؟ ان استدعي السمسار لمراجعة اسهمي؟»

جينيفر تايلور

جينيفر تايلور ـ ولدت في ليفربول، انكلترا، وما زالت تعيش في الشمال الغربي على بعد عدة أميال من المدينة، كانت الكتب شغفها الدائم ولهذا كان من الطبيعي أن تختار وظيفة مكتبية، والذي كان قراراً حكيماً حيث أنها تعرفت إلى زوجها بيل، فيما بعد، في المكتبة. بعد ذلك بعشرين سنة، وكان قد أصبح لديهما ولدان، استمر زواجهما سعيداً. هذا بالإضافة إلى سعادة أخرى وهي حين وجدت في كتابة الرواية الشاعرية الخيالية، شيء من البهجة والتحدي.

٥٤٢

khouloub Abir 542

حب في الادغال

جينيفر تايلور

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

كانت الشمس شديدة الحرارة. فرفعت غابرييل شعرها الكثيف عن عنقها واخذت تمسح الرطوبة بمنديلها المطرز الحواشي، ثم عادت تدسه في جيب تنورتها البيضاء الحديثة الطراز وهي تشمل بنظراتها الأرض المنبسطة امامها، إلى حيث كان الرجل الذي أمضى نصف الساعة الأخيرة جالساً على برميل زيت، يبري عصا بسكين في يده.

كان يبدو عليه الراحة التامة بالرغم من الحرارة الشديدة في مثل هذا اليوم. ومن غير مبرر، شعرت بحدة في مزاجها.

بدأت تجتاز الأمتار القليلة التي تفصلهما لتقف امامه. ولا بد أنه سمع وقع خطواتها على العشب الجاف المغبر، ولكنه لم يرفع نظراته إليها، واستمر يبري العصا بالسكين الحاد المخيف. ازداد شعورها بالحدة حين قالت: «كم سيستمر هذا العمل؟»

عند ذلك رفع بصره ينظر إلى وجهها الغاضب، لحظة قصيرة عاد بعدها إلى الاهتمام ببري العصا التي في يده، وهو يقول: «إلى ان تنتهي هذه، لماذا لا تذهبين للجلوس في الظل، يا آنسة مارشال؟ يبدو عليك وكأنك تعانين من حرارة الجو.»

لم تكن تعاني من مجرد الشعور بالحرارة، وإنما كانت

تشتعل في داخلها، ولم يكن ذلك من تأثير حرارة الجو فقط، فمدت يدها ثم اختطفت منه العصا وألقتها على الأرض وعيناها تبرقان غيظاً. «لقد استأجرك جدي لتوصلني بالطائرة إلى حيث يعيش، وأظن أنه عليك أن تقوم بشيء يستحق الاجر الذي تناله.»

وقف الرجل ببطء ما اشعرها، رغم غضبها، بشيء من القلق، كان يحيط بهذا الرجل شيء غامض. لقد تملكها هذا الشعور منذ اللحظة التي وقع فيها بصرها عليه في مطار مدينة مكسيكو رغم أنه لم يتكلم كثيراً، كما ناولها رسالة من جدها تعرفها به، ثم صحبها إلى سيارة الجيب القديمة تلك والتي كانت واقفة في الظل في الناحية الأخرى من الأرض الفسيحة. لقد أوشكت على رفض السفر في تلك العربة القديمة المظهر، لكنها عادت عن رفضها بعد ان نظرت، إلى وجهه ولم تفهم سر شعورها بالحذر منه.

قال: «لقد استأجرني جدك لنقل حمولة إليه. وانت، يا آنسة مارشال مجرد حمولة أخرى.»

لم تصدق أذنيها. ألا يعلم من هي؟ فقالت: «انك مخطىء جداً في التحدث إليّ بهذا الشكل. الديك فكرة عما قد يحدث لك إذا أنا أخبرت جدي كيف كنت قليل الأدب معي؟ لن يكون هناك من سيستأجرك لنقل الحمولات إذا قال جدي هنري مارشال كلمة بهذا الصدد.»

«قليل الأدب؟ انا لا اتذكر انني كنت معك كذلك، أيتها الآنسة. فهذه ليست بقلة الأدب التي تصدر عني، عادة، وحين اقصدها فعلا. اظن أنه كان على احد ما أن يفهمك

قدرك منذ زمن طويل ويجعلك تدركين انك لا يمكن أن تكوني متفوقة على الآخرين لمجرد أن أسرتك تملك من الأموال ما لا تعرف ماذا تفعل به.»

«أيها الوقح...» وارتفعت يدها تحاول صفع الرجل الذي لم يحاول تجنبها. بل ابتسم ببطء وعيناه في عينيها بطريقة جعلتها تشعر فجأة بالخجل. واخذت تنظر إلى كفها، حولت نظراتها بعد ذلك بعيداً ولكنه أجبرها على النظر إليه حين قال: «انها المرة الأولى والأخيرة التي تفعلين فيها هذا ثم تفلتين من العقاب. مفهوم؟» ادركت انها لن تستطيع التخلص منه بسهولة، فجذبت نفساً عميقاً وهي تحاول جهدها ان ترفض الإجابة، ولكن نظرة واحدة إلى ما يبدو في عينيه من حزم، انبأتها بأن ذلك سيشكل غلطة أخرى، فأجابت: «نعم.»

«حسناً، يبدو أننا بدأنا في التفاهم الآن. ولنسمها الخطوة الأولى لتفاهم اكبر بيننا. هل يمكن ذلك يا آنسة مارشال؟»

وبدا أن كلامه هذا يبطن شيئاً ما، لم تستطع إدراك كنهه. بعد ذلك أسرعت عائدة إلى حيث كانت جالسة على كومة الخشب. كان الغضب الشديد يعصف كليًا في داخلها. ما الذي جعل جدها يستأجر رجلاً كهذا؟ كان عليه أن يكون اكثر عناية بالإختيار. فقد كان هذا تصرفاً آخر غريباً يضاف إلى ما أخذ يقوم به هنري مارشال مؤخراً، وقد ابتدأ بإعلانه عن تقاعده ومن ثم سفره إلى البرازيل لكي يستخرج حجر الجمشيت الكريم من المناجم.

اسندت رأسها إلى الخلف على جذع الشجرة، ثم اغمضت

عينيها وهي تفكر في كل هذا، ولكن، كان من الصعب عليها ان تفهم السبب الذي جعله يقدم على هذا القرار المجنون. لقد كان الحق مع هذا الرجل... ذلك أن أسرتها تملك من المال اكثر مما هي بحاجة إلى إنفاقه، وقد اكتسبتها من الشركة الكيماوية الضخمة التي كان جدها قد أنشأها منذ خمسين عاماً، ولكن هذا لا يفسر السبب الذي جعله يصمم، وهو في الثانية والسبعين من عمره، يصمم فجأة على إدارة ظهره لهذا كله ليسافر إلى اميركا الجنوبية.

كانت غابرييل تقيم عند بعض الأصدقاء عندما اتصلت أمها بها هاتفياً لتخبرها، وهي في حالة هستيرية، عن قرار جدها ذاك، ولذا كان اكثر ما دفع غابرييل إلى أن تفكر بالسفر إلى حيث جدها، هي لمحاولة مناقشته في هذا الموضوع، والعمل ايضاً على تهدئة أمها. لقد كانت وثيقة الصلة بجدها، فقد توفي والدها عندما كانت صبية صغيرة، فاهتم جدها بها وبكل احتياجاتها، رغم انها لم تعد تراه، في المدة الأخيرة، إلا قليلاً، ولما كانت من أولئك الناس القلائل الذين لا تضطرهم الحياة للعمل، فقد أخذت تمضي حياتها في التسلية والنزهات، من رياضة التزلج على الثلج في سويسرا، والإبحار إلى جنوب فرنسا، وإلى شراء ملابسها وسائر حاجياتها من نيويورك وباريس ولندن.

ومع ذلك، أخذ شعور غابرييل، في الشهور الأخيرة، يتفاقم بالنسبة إلى حياتها الخالية من أي هدف، وعما إذا كان على حياتها تلك أن تتضمن شيئاً اكثر من مجرد التفتيش دون توقف، عن مصادر البهجة والسعادة، ولكن،

ما هو ذلك الشيء؟ لقد فكرت كثيراً ولكنها أخفقت حتى الآن في العثور على ما تفتقده، والإتجاه الذي ينبغي عليها أن تستدير إليه. وهذه الرحلة التي كانت تريد منها حمل جدها على التعقل لم تكن سوى وسيلة تهدىء بها من صوت ضميرها المتعالي. ولكن من المؤسف أنه كان عليها القيام بها بمثل هذه الصحبة المزعجة لهذا الشخص.

فتحت عينيها وحدقت في الرجل، ولكن تعابير وجهها تغيّرت وقد وجدته يراقبها. وبسرعة، حولت نظراتها بعيداً. ولكنها ما لبثت ان اجفلت عندما سمعت صوتاً عميقاً بجانبها يقول: «سنبدأ رحلتنا بعد عدة دقائق. ومن الأفضل لك أن تحضري حقائبك من السيارة الجيب.»

قالت بطريقة كانت تعلم أنها تستفزه: «أنا لا احمل حقائب. انه عملك أنت.» مشت غير مكترثة لكلامه دون أن تلقي عليه نظرة. وعندما وصلت إلى الطائرة الصغيرة، لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى الخلف ما جعلها تصاب بخيبة الأمل وهي تراه يسير نحو سيارة الجيب. هل ترك تهديدها أثراً في نفسه فأدرك مكانته؟ لا بد أن ذلك قد حدث مادام ذهب لإحضار حقائبها. إنما ساورها نوع من الشعور بالانحطاط، وكأنه سقط في امتحان ما فخسر اعتبارها له، وكان هذا أمراً سخيفاً في الواقع حيث انها لم تكن تعلم عنه شيئاً.

لم تنطلق الطائرة إلا بعد ربع ساعة، فجلست غابرييل في مقعدها والجو الحار ما زال يلفح وجهها ثم اخذت تراقب الرجل الذي كان يراجع قائمة قبل الطيران

فطمأنها ذلك وهدأ ما كانت تشعر به من مخاوف، من الواضح أنه طيار متمرس، حيث أنه كان يقوم بفحص كل شيء. كان هناك بعض المشاكل بالنسبة إلى الوقود، كما كان قد اخبرها ساعة وصولهما إلى ذلك المطار الصغير الخاص القائم في ضاحية المدينة، ولكن يبدو أن هذا الأمر قد سوي.

كان الطيران هادئاً سهلاً استقرت معه غابرييل في مقعدها وهي تقلب صفحات المجلة محاولة التشاغل بها عن القيام بأي حديث مؤدب معه، وفي الواقع لم يكن هناك ما يحملها على التحدث معه بأدب بعد الذي جرى بينهما، مع هذا، وبالرغم من عزمها على تجاهله، وجدت عينيها تتحولان إليه مرة بعد أخرى، تراقب الكفاءة التامة التي يبديها في قيادة الطائرة، ولكنها عادت تنظر إلى الأمام عندما نظر إليها فجأة، فوجدها تنظر إليه.

هبطت الطائرة بهما ليملأ خزانها بالوقود. ولم تشأ غابرييل الإنتظار فترجلت من الطائرة متجهة مباشرة إلى غرفة الإستراحة حيث أمضت وقتاً غسلت فيه يديها ووجهها. وعندما استدارت إلى قاعة الإنتظار، كان الرجل الطيار متكئاً على جهاز إعداد القهوة، يتحدث إلى طيار آخر. وعندما ظهرت، ألقى نظرة سريعة، فيها شيء من الإزدراء، على ملابسها الغالية الثمن، ثم لم يلبث أن اهملها كلياً.

وشعرت غابرييل بالغضب من تعمده اهمالها بهذا الشكل.

وهكذا اجتازت القاعة وهي تكبح غضبها وقد تجاهلته تماماً، إلى حيث ألقمت جهاز صنع القهوة، قطعة نقد. وأخذت رشفة من فنجانها وعبست بعدها لمرارة طعمها.

جاءها صوته يقول: «عليك أن تسرعي، إذ سنغادر بعد دقيقتين.»

فعادت ترشف القهوة من الكوب البلاستيكي في يدها دون أن تهتم بالنظر إليه، ثم وضعته جانباً لكي تتفحص مجموعة من أنواع الكعك الذي يقدمه الجهاز.

«هل سمعتني؟»

تفاجأت وابتعدت عنه قائلة: «انني لست صماء، لقد سمعتك طبعاً، وعلى كل حال، فإن عليك أن تنتظر قليلاً.» ونظرت بابتسامة مصطنعة إلى وجهه وتابعت: «أنا واثقة من انك ترى انني لم افرغ من تناول قهوتي بعد.»

فقال وهو يبادلها الابتسام: «كلا؟» انما كان في ابتسامته شيء من الهزل. وتقدم نحوها، ليرفع فنجان القهوة من حيث كانت وضعته على قمة جهاز صنع القهوة ثم يفرغه في صفيحة القمامة ليعود بعد ذلك فيضغط على فنجان البلاستيك في يده ليلقي به هو أيضاً، قائلاً: «اظنك فرغت من تناول قهوتك الآن، يا آنسة مارشال، أليس كذلك؟ هيا بنا.»

واستدار ذاهباً، ولكنها لم تكن تنوي أن تدعه يفلت من نتيجة عمله هذا، فأسرعت تقول: «يا للجرأة، من تظن نفسك؟»

التفت ليواجهها، وعيناه تلمعان لرؤية وجهها الغاضب، ثم قال بهدوء: «انني الرجل الذي يأخذك بالطائرة لتزوري جدك، والآن، فأنا غير واثق تماماً مما إذا كان هذا يمنحني نفس النوع من السلطة التي يتمتع بها قبطان سفينة، انما أرجوك ان تمتثلي لما اقوله، يا آنسة مارشال. فعندما اقول اننا سنشرع في الرحيل، فهذا معناه اننا سنشرع فعلاً في الرحيل.»

شعرت غابرييل بموجة اخرى من الحنق منه إزاء نبرة صوته العميقة وما ارتسم على وجهه من تعبير: «انني واثق من انك لن تحبي الطريقة التي اعامل بها الذين يعصون الأوامر.»

تركها وخرج من الباب متوجهاً إلى الطائرة. فمسحت غابرييل وجهها براحتها وهي ترتجف من الغضب مما حدث. انه لم يؤذها، كما كلامه معها كان منطقياً، ومع هذا، لماذا كانت تشعر بمثل هذا الغضب الشديد؟ لماذا تشعر بالتحدي والنفور منه كلما نظر إليها؟ ولكن ليس هذا ما شعرت به. إن الصدق يدفعها إلى الاعتراف بأنها شعرت بالخوف، ليس منه فقط، وإنما من مشاعرها هذه. كلما اقتربت هذه الرحلة من نهايتها، كلما كان ذلك افضل.

لم تكن تتوقع أن تشعر بالإرتياح بعدما جرى من حديث بينهما، بالرغم من قلته، ولكن هدير المحرك المتواصل ميلاً بعد ميل قد ترك أثره، فتملكتها غفوة ما لبثت أن استيقظت منها فجأة عندما اهتزت الطائرة فجأة بشكل ينذر بالخطر.

تجمدت من الذعر في مكانها، وحدقت إلى الأسفل حيث الغابة الممتدة الكثيفة، ثم صرخت والطائرة تندفع نحو الأرض. «ما هذا؟ ماذا حدث؟»

«انها قضية الوقود مرة أخرى.» كان الجد مرتسماً على وجه الرجل وهو يمر بيديه على وسائل التحكم والضبط، بينما اخذ يهتف في جهاز اللاسلكي بسلسلة من الأرقام لم تستطع متابعتها.

«هل تظن ان الطائرة ستسقط بنا؟» كان صوتها يرتجف خوفاً، فنظر إليها ثم عاد ينظر إلى الأرض وهو يدور بالطائرة ببطء وثبات: «انها لن تسقط بنا، يا آنسة مارشال.»

«ارجو ذلك.» وأرخت قبضتها عن المقعد، ولكنها ما لبثت أن صرخت وهي ترى رؤوس الأشجار تقترب أكثر منهما: «اظنك قلت ان الطائرة لن تسقط.»

«وهي لن تسقط بنا فعلاً، ولكنها تهبط بنا. ليس لنا خيار سوى هذا.»

«تهبط؟ وبين كل هذه الأشجار؟ هذا مستحيل؟» فمد يده وأشار إلى الناحية اليمنى، وقال مطمئناً: «اننا سنهبط في تلك الأرض الفسيحة هناك.»

ثم عاد إلى وسائل التحكم بالطائرة، بينما اغمضت غابرييل عينيها ومضت ترجو وتتمنى، وما لبثت ان اطلقت صرخة فزع حادة بعد أن شعرت بالعجلات تلامس الأرض لتعاود الطائرة بالاندفاع إلى الأعلى وذلك لمرتين متتاليتين وقبل أن تبدأ بالسير على الأرض الخشنة لتأخذ، بعد ذلك، بالوقوف ببطء في نهاية تلك الأرض

بالضبط. عدت غابرييل إلى العشرة قبل ان تفتح عينيها وتنظر حولها.

خضرة... كان هذا كل ما أمكنها رؤيته. أشجار، شجيرات، نباتات، أوراق شجر مكتظة وملتفة، على مد النظر.

«أين... أين نحن؟» كان صوتها خافتاً، ولكن يبدو أن الرجل سمعها وهو يطفىء المحرك ويفك حزام مقعده. فتح باب الطائرة، ثم نظر إليها قائلاً وهو يهز كتفيه: «أظن أننا في مكان ما في وسط البرازيل.»

«في مكان ما؟» وكان صوتها قد ارتفع بشدة لتوقفه عن الخروج. «ألا تعرف بالضبط أين نحن؟»

«ليس بالضبط، كلا، لقد تعطلت البوصلة منذ فترة.»

«ولكن ألم تعلن عن مكاننا بالراديو قبل هبوطنا؟»

«نعم، ولكن الخريطة لم تكن دقيقة فقد كانت آخر واحدة وجدتها، وهكذا اذعتها باعتبار انها افضل من شيء.»

لم تستطع أن تصدق ما تسمع، لقد هبطا في وسط الأدغال، ومن المحتمل أن لا يكون لدى أحد ادنى فكرة عن مكان وجودهما.

وعندما نزل من الطائرة تبعته وهي تنظر حولها إلى جدار من النباتات الخضراء وأوراق الشجر المتشابكة ثم سألته: «ما الذي سنفعله؟ وكم سيمضي من الوقت إلى أن يعثروا علينا؟»

فمد يده إلى خلف مقعده وسحب حقيبة جلدية رثة وألقى بها على الأرض دون اكتراث وهو يقول: «من

الصعب معرفة ذلك، ربما خلال يومين، اسبوع أو اسبوعين. وربما اكثر.»

«اسبوعان؟ ولكن ليس بإمكاننا البقاء هنا كل هذه الوقت.»

فابتسم فجأة، وكانت ابتسامة مطمئنة جعلتها ترتاح بعض الشيء. «طبعاً، ليس بإمكاننا ذلك، وأنا مسرور لنظرتك العقلانية إلى الأمر بمجمله.»

ولكنها كانت تشعر بكل شيء ما عدا العقلانية، إنما لم تشأ أن تظهر له ذلك. «ما الذي سنفعله إذن؟»

«هذا واضح تماماً.» وفتح الحقيبة واخذ يقلب في محتوياتها، ثم سحب بنطلوناً بلون كاكي وقميصاً يشبه قميصه الذي يرتديه. «ستكون الملابس هذه واسعة عليك، ولكن الذنب ذنبك في هذا.» أتراه يتكلم بالألغاز؟ أم أن تأثير الصدمة عليها منعها من أن تفهم ما يقول؟ وحملقت في الملابس التي كان يناولها إياها، ثم رفعت نظراتها إليه وهي تهز كتفيها قائلة: «آسفة، ولكنني لا افهم عما تتكلم.»

طوى الملابس ثم قذفها نحو قدميها، ثم أخذ يجمع أشياء من الطائرة ويضعها على الأرض بشكل كومة منظمة: «انك لم تحضري حقائبك معك، ولهذا يتوجب عليك ارتداء بعض ملابسي.» ونظر إلى الصندل ذي الأربطة الذي تحتذيه، ثم تابع: «إنما الحذاء سيكون مشكلة، إلا إذا...»

وسحب من تحت مقعد الطائرة حذاءً من القماش رثاً بشكل مخجل ألقاه إليها. فتركته غابرييل يقع على الأرض، وهي تحملق فيه بعينين غير مصدقتين. «اتريد أن تقول انك... تركت حقائبي في سيارة الجيب؟»

«انني لم اتركها. وإنما انت التي رفضت وضعها في الطائرة. فاللوم في ذلك يقع عليك.» كان في صوته رنة قاسية ولكن غابرييل تجاهلتها لتقول بحقد: «كان عليك انت أن تقوم بذلك. فقد استأجرك جدي لتحضرني إلى هنا.»

«نعم ولكنه لم يستأجرني لأكون خادماً خاصاً لك.» وعندما تلاقت اعينهما، رأت السخرية فيهما وهو يتابع قائلاً: «انك فتاة كبيرة الآن. وأنا واثق من قدرتك على إداء مهمة بسيطة صغيرة مثل نقل حقائبك. والآن، أرى أن تكفي عن الشكوى وترتدي هذه الأشياء.»

سكتت غابرييل وهي تحبس انفاسها، شعرت برغبة في الصراخ لولا ادراكها بأنه لن يهتم بذلك مثقال ذرة. لم تشعر بمثل هذا الإحباط قط في حياتها، فقالت: «عفواً إذا بدوت غبية بسؤالي هذا، وهو لماذا عليّ ارتداء ملابسك؟ لا اظنها تلائمني، أليس كذلك؟»

انحنى ارضاً، واخذ يدس بسرعة الأشياء التي كان جمعها، في حقيبة تحمل على الظهر، ثم القاها على ظهره وقال: «انها طبعاً، ليست من تصميم كريستيان ديور، يا آنسة مارشال، ولكنني واثق من انك ستجدينها أكثر ملاءمة من ملابسك هذه التي ترتدينها، مهما كانت حقيرة.» ونظر إلى جدار النباتات الملتفة خلفها. «إذ قد تتعرضين هناك إلى خدوش وجروح في غاية السوء.»

فتابعت نظراته، وسرعان ما شعرت بالخوف الشديد: «هل تقصد انك تتوقع مني الذهاب إلى داخل ذاك... ذاك الدغل؟»

فهز كتفيه وهو يعدل من وضع الحقيبة على ظهره. «أنا لا أتوقع شيئاً. فأنت حرة في ما تقومين به. وعلى كل حال، فليس من شيء يجعلني انتظر هنا نجدة قد لا تأتي أبداً، والخيار مرة أخرى يعود إليك. فإما أن تأتي معي، أو تبقي هنا. فكري جيداً.»

«ولكنني...» وتوقفت عن ما كادت تقوله، وقالت بالمقابل محاولة معه. «اسمع يا سيد... لكنها سكتت فجأة إذ لم تعرف اسمه بعد.

رأته يبتسم ساخراً. «هكذا انتبهت اخيراً إلى التساؤل عن اسمي، أليس كذلك؟ لمعلوماتك الخاصة، فإن اسمي هو دويل.»

فنظرت إليه عندما لمست البرودة في صوته وقالت: «لو كنت اعلم مدى اهتمامك بقواعد السلوك، لسألتك قبل الآن، يا سيد دويل، وأريد منك المعذرة لغفلتي هذه.»

تجاهل التهكم الذي بدا في صوتها وهو يخرج سكيناً من الغمد ويتجه إلى الغابة الكثيفة. وقف عند نهاية الفسحة الصغيرة من الأرض، وعاد ينظر إليها وهو يرفع حاجبه بعدم اكتراث: «هل ستأتين أيتها الآنسة، أم لا؟»

عادت غابرييل تنظر إليه، ثم نظرت حولها إلى هذه المساحة الصغيرة المكشوفة من الأرض. كانت الادغال تحيط بها من كل الجهات، بظلمة خانقة، بينما الحرارة المتبخرة من النباتات تملأ الجو بروائح العفونة. لم تشأ أن تدخل ذلك العالم الأخضر، ولكنها أيضاً لم تكن تريد البقاء هنا بمفردها.

لم تنهض إلا بعد ان سمعت صوت قطع السكين للنباتات

ليشق ممراً نفذ منه فلم تر سوى ظهره. فحملت حزمة الثياب وصرخت بجزع، ثم اسرعت تركض خلفه.

هناك مثل يقول ان الوجه الذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه، ولكنها، لأمر ما، لم تستطع ان تستمد من هذا المثل الكثير من التعزية، لأنها لا تعرف شيئاً عن هذا الرجل الذي يدعى دويل.

الفصل الثاني

«انني تعبة. لا أظن بإمكاني السير بعد الآن، هل تسمعني؟»

كان في صوتها سخط وغضب، وهي ترى دويل يقطع بعنف فرعاً من النبات. فاستدار ينظر إليها وكأنها نوع غريب من المخلوقات.

وقفت مكانها لا تتحرك محاولة ان لا تتصور مبلغ ما بدت عليه من السخافة. فقد استمر سيرهما ساعات، بينما كثافة الأشجار تعيق تقدمهما، كانت كل خطوة إلى الأمام عبارة عن كفاح شاق بينما النباتات الشائكة تتعلق بملابسهما وكأنها تشدهما إلى الخلف. لقد انتشرت على تنورتها البيضاء بقع وخطوط من الأقذار. كما تمزق الكمان من قميصها، بينما غاصت قدماها في الوحل.

قال لها: «عشر دقائق فقط. هذا كل ما يمكنك الحصول عليه، ولو كنت مكانك لاغتنمت هذه الفرصة واستبدلت ملابسك هذه بالتي اعطيتك اياها.»

غرز سكينه في فرع من النبات، ثم جلس القرفصاء متجاهلاً غابرييل كلياً، وبالرغم من عمله الشاق ذاك وهو يشق طريقاً عبر الأدغال لم يبد عليه تغيير كبير عما كان عليه عندما شرعا في هذه الرحلة وعندما اغمض عينيه، بدا في راحة كلية كأنهما كانا يتنزهان طوال فترة العصر في حدائق كيو، فجعلها هذا تشعر

www.elromancia.com

بالغضب يستولي عليها، رغم معرفتها بعدم حقها في ذلك.

فقالت له: «أهذا كل ما بإمكانك قوله؟ لا بد انك تتفهم مدى خطورة الوضع، يا سيد دويل.»

«قولي دويل فقط وانسي كلمة سيد، كما أنه ليس لدي شك في مدى خطورة هذا، وعلى كل حال، العصبية في هذا الأمر لن تفيدنا بشيء، صدقيني.»

«ما الذي يفيد إذن؟» وألقت بحزمة الثياب على الأرض وأخذت تحدّق حولها رغم أنه لم يكن هناك الكثير الذي يمكن رؤيته، ثم تابعت تقول: «الفكرة كلها سخيفة، ما كان لنا أبداً أن نترك الطائرة. إنني سأعود إليها.»

«لماذا؟ ما الذي تتوقعين وجوده هناك...؟ هذا إذا عثرت على الطائرة مرة أخرى.»

«ماذا تعني؟ كل ما عليّ عمله هو اتباع الأثر في الطريق الذي جئنا منه. بإمكاننا أن نعود إلى هناك في وقت سريع جداً، ثم...»

«ثم نجلس هناك في انتظار فرسان النجدة الذين يأتون لإنقاذنا. آسف، يا غابي، فإن ذلك لن يحدث.»

«اسمي غابرييل. ولا احد يناديني بغابي.»

«هذا مؤسف. فلو فعل هذا شخص ما، لربما كانت بصيرتك افضل مما هي الآن...»

«اسمع الآن، انك...»

وقف دويل بسرعة وهو ينظر إليها بطريقة جعلت الكلمات تتكسر في حلقها. «كلا، اسمعي انت أيتها الآنسة. هذه ليست جولة للتسلية في حديقة هايد بارك أو بوند

ستريت. ولا يمكنك ان تستدعي سيارة لتأخذك إلى البيت. فإذا كان لدينا أي أمل في العثور علينا، فعلينا أن نعود إلى الموقع الذي كنت حددته لهم على الخريطة فهناك سيتركز التفتيش عنا، إنني سأتجه إلى هناك أما أنت فلديك الحرية في أن تأتي معي. ان الخيار لك.»

«هل حقاً ستتركني هنا؟» واطلقت ضحكة قصيرة جافة دون أن تحاول اخفاء سخريتها. «كلا، لا تضيع وقتك في الإجابة. فنحن الاثنين، نعلم انك قد تفعل ذلك.»

«إذن، فليس ثمة فائدة من إطالة الحديث في هذا الشأن، أليس كذلك؟» وأدار ظهره لالتقاط السكين ولقطع النباتات من جديد. اخذت تراقبه بصمت، ثم نظرت حولها. لما كانت ترددت في الابتعاد عنه لو كانت تملك الثقة الكاملة في العثور على طريق العودة إلى الطائرة... ذلك لأن الدغل، كما يبدو، قد اغلق الطريق الذي كان شقه دويل، وهذا ما جعل معرفة الطريق الصحيح الذي عليها أن تسلك، بالغ الصعوبة.

تنهدت وهي تفتح حزمة الملابس ثم تأملتها باشمئزاز قبل أن ترفع صوتها مخاطبة الرجل الذي كان مستمراً في عمله: «عليك ان تنتظر إلى أن اغير ملابسي.»

قال باختصار: «حسناً، اسرعي قدر إمكانك.»

فابتسمت وهي تجيب: «لماذا؟ هل لديك موعد مستعجل في مكان ما؟ المفروض أن لدينا كل الوقت الآن، لذا يمكنني أن آخذ منه عدة دقائق كي أغير فيها ملابسي.»

«انك مخطئة هنا، أيتها الآنسة، فنحن لا نملك مطلقاً كل الوقت الآن.» ومسح بإبهامه عصارة النبات عن نصل

السكين، ثم تابع: «ان أية طائرة إنقاذ تأتي إلينا لن تحوم فوق المكان طويلاً. لذا علينا التقدم إلى ذلك المكان في أسرع وقت ممكن، وإلا علينا أن ننسى مسألة إمكانية إنقاذنا.»

«أنا... ولكن هذه سخافة، إنهم لا يمكن أن يتركونا هنا، إن... إن جدي لن يسمح بأن يحدث هذا.» كان من الصعب عليها إخفاء خوفها.

«إنني واثق من أنه سيقوم بكل ما في وسعه لاسترجاعك، يا غابي، إنما، حتى هو نفسه، سيتملكه اليأس من مداومة البحث المتواصل الى حدّ ما، فالكثير من الطائرات هبطت في هذه المنطقة على مدى سنوات، ولم يتمّ العثور عليها.»

فأخذت تنظر بعيداً وقد شملتها موجة من الذعر، انهم سيعثرون عليهما. ولا تحتمل التفكير في أي شيء آخر. اختفت بعدها بين الاشجار الكثيفة لتبدل من ملابسها، فقال وهو يسير بالاتجاه المعاكس: «من الأفضل أن تحتفظي بقميصك الأبيض لأن لونه مميز جداً وسيكون مفيداً جداً في التلويح به لأي طائرة تمر من فوق رؤوسنا. سأضعه في الحقيبة.»

بقي مكانه يستند بتكاسل على جذع شجرة وقد بدا عليه السأم. بعدما انتهت وتقدمت نحوه قال بأعلى صوته: «انك لن تنالي بهذا أي جائزة في الأناقة ولكنه قد يفي بالغرض. والآن ماذا سنفعل بهذا الحذاء؟»

فانحنت تلتقط الحذاء القماشي الرث، وجلست تدس قدميها في الحذاء وتشد رباطه بإحكام قدر استطاعتها،

وهي تحاول السيطرة على اعصابها. لكنه قال فجأة: «كيف تجدين الحذاء؟»

فأجابت: «إنه كبير، ولكنني سأتدبر الأمر، من المؤسف انك لم تحضر حقائبي لأن فيها حذاء مناسباً جداً.»

كانت تريد بهذا الكلام أن تضع اللوم عليه، ولكن جوابه كان بأن التقط حقيبة الظهر وألقى بها إليها وهو يبتسم ساخراً. «لو انك كنت معتادة على حمل اشيائك بنفسك لما كنت تعانين كل هذا الآن، فاحملي هذه إذن، واعتبري ذلك درساً لك.»

أدار لها ظهره ومضى يقطع اغصان النبات، فحدقت غابرييل بالحقيبة بغضب، ماذا يعتقدها يا ترى لكي يعاملها كخادمة عليها إطاعة أوامره؟ خامرها شعور بأن تترك الحقيبة مكانها ولكن ما منعها من ذلك التفكير ردة الفعل من دويل عندما يعلم بعملها ذاك.

وضعت الحقيبة على ظهرها ثم سارت تتبعه، وهي تنظر إليه بعينين غاضبتين، وبحقد شديد.

«الأفضل أن نتوقف هنا.» وجعلها صوته تتوقف وقد استبد بها الإنهاك. فتنهدت وهي ترفع حقيبة الظهر عن كتفيها المتيبستين، ثم جلست على الأرض.

كان الوقت عصراً، وقد بدا عليها الارهاق الشديد، رفعت بصرها إلى دويل، فكادت تبكي وهي تراه لم يكد يتغير عما كان يبدو عليه أول شروعهما في السير. كانت هناك لطخات قذرة على قميصه وكذلك على وجهه، وعدا ذلك فقد بدا وكأن هذا كان جزءاً من عمله اليومي،

فإذا كان بإمكان هذا الرجل أن يستمر في هذا السباق الرهيب دون أن يبدو عليه أي تأثير لذلك، فهو ليس طبيعياً.

مالت برأسها إلى الخلف تسنده إلى جذع شجرة خشن القشرة، ثم اغمضت عينيها لا تريد مداومة النظر إلى هذا الرجل الغير المرتاح بينما هي تشعر وكأنها وضعت في آلة الغسيل، وأخرجت منها بعد دوران شديد. لقد كانت تفتخر دوماً من مزاولتها إذ كانت للتمرينات الرياضية في عدة نوادٍ غالية، وذلك في أنحاء مختلفة من العالم، ولكنها ترى الآن أن كل تلك المبالغ التي كانت انفقتها على ذلك كانت من دون فائدة ولم تعكس نتائجها الآن.

«هيا، لا يمكنك التلكؤ، فهناك عمل أمامنا.»

كانت لهجة دويل قاطعة جعلتها تفتح عينيها على الفور. وحدقت به عابسة: «عمل؟ ما هذا الذي تتحدث عنه. ربما غاب عن ذهنك أيها السيد، اننا الآن معزولون في وسط الأدغال... فما الذي تقترح عليّ عمله؟ أن استدعي السمسار لمراجعة اسهمي؟»

فبدت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يلقي بالسكين من يده لينغرز في التراب على بعد سنتمترات من قدمها. «آه، إن هذا لم يغب عن ذهني، ولكنني اظنك انت التي لا تدركين تماماً الوضع الذي نحن فيه.» وألقى نظرة على الجدار السميك من النباتات الملتفة المتشابكة التي تكاد تحجب نور الشمس، ثم عاد ينظر إليها. «بعد حوالي ثلث الساعة سينهمر المطر، ولا بد لنا من تشييد ملجأ يحمينا

منه. فانهضي إذن واقطعي بالسكين قدر ما تستطيعين من أوراق النباتات العريضة اللامعة تلك بينما اشرع أنا في تشييد خيمة منها.»

حملقت غابرييل في ذلك النصل الفضي المغروز في الأرض، ثم عادت تنظر إلى دويل تكاد لا تصدق ما سمعت. هل هو يتصور حقاً انها ستقفز حالاً لتشرع في قطع أوراق النباتات بينما هي مرهقة بهذا الشكل، لا لشيء، إنما لأنه يظن بأن المطر سينهمر بعد ثلث ساعة؟

قالت ببرود: «بعد بضعة دقائق التقط أثناءها انفاسي... لا يعني هذا أنني اراجعك في خبرتك في الأحوال الجوية هذه، وإنما...»

وعادت تسند رأسها إلى جذع الشجرة وتغمض عينيها. ولكنها ما لبثت ان فتحتهما فجأة بعد ان سمعته يصرخ بأعلى صوته، فأذعنت له خائفة مذعورة.

«عليك أن تتعلمي الصبر، أيتها الآنسة، ألم يخبرك أحد بهذا من قبل؟» ثم أخذ يحدق في وجهها ليتابع: «والآن، علينا أن نقوم بهذا العمل طوعاً أو كرهاً، فاختاري لنفسك. ولكن مهما كان اختيارك فالنتيجة واحدة، والآن، هل لك ان تشرعي بقطع أوراق النباتات تلك؟»

وشبك ذراعيه فوق صدره وهو ينظر إليها بغطرسة جعلتها تدرك أنه يعني ما يقول. فحولت نظراتها عنه، لا تريد أن تمتثل لأمره هذا. ولكنها ما لبثت أن شعرت مدى الخطأ من ذلك. وأخذت تتساءل لماذا يصعب الأمور بهذا الشكل.

عادت تنظر إليه رافعة الرأس بكبرياء، وقد كرهت أن ترغم على التراجع. «ما دام هذا العمل مهماً بالنسبة إليك، فالمفروض أن أقوم به، إنما لا تتصور انه بإمكانك الافلات، فيما بعد، من العقاب لتهديدي بهذا الشكل، يا دويل، وستندم لتحكمك بي هذا عندما نعود.»

«عندما نعود، يا غابي، سأقلق لهذا الأمر ولكنني، حالياً، لا اظن النوم سيجافيني لشدة الندم.» والتقط السكين وناولها اياه، ثم انحنى واخذ يفتش في الحقيبة، وقد تجاهلها كلياً وهو يخرج بعض الأشياء ويضعها على الأرض.

اخذت غابرييل تنظر إليه فترة، ثم تنهدت بشدة لتخفف بذلك ما شعرت به من غضب. إنها لم تر يوما رجلاً مثله من قبل. ألا يرى أن بإمكان أسرتها أن تشتريه ألوف المرات؟ لا يبدو ذلك.

استدارت نحو النباتات تهوي بالسكين بعنف على أقرب شجيرة إليها، وكأنها تفرغ حقدها من تقلبات الدهر التي قضت عليها بأن ترافق رجلاً مثله. وأخذت تفكر فجأة بتألم وحسرة بالمجتمع الراقي الذي خرجت منه منذ أيام!

وضربت بالسكين غصناً سميكاً مستعملة لذلك كل ما تملكه من قوة، ثم القت به ارضاً وهي تستدير لتنظر إلى دويل. كان مديراً ظهره إليها يحني شجيرة غضة ثم يربطها مثبتاً إياها بإحكام بقطعة من حبل. كان يعمل بسرعة في ربط فروع أخرى إليها، وكانت كل حركة منه تتسم بالثقة والإقتصاد بالوقت.

قد يعاملها الآخرون بمثل ما تعودت عليه، ولكن، أي منهم كان سيتمكن من مواجهة هذه الصعاب التي تواجههما في هذا الوضع؟ ايمكنها حقاً ان تتصور غلين، بثيابه المصممة خصيصاً له، وهو يقوم بعمل كهذا؟ أو روبرت... أترى سيكون لديه أقل فكرة عن كيفية انقاذهما معاً؟

عادت غابرييل إلى عملها، واخذت تضرب بالسكين اكوام النباتات الخضراء اللامعة وهي تتذكر اسماء كل الاصدقاء الذين تعرفهم في مجتمعها، منذ سنوات، فوجدتهم فجأة سطحيين ضعفاء. فلا واحد منهم كان سيتمكن من مواجهة مثل هذا التحدي كما يفعل دويل، صحيح انه متغطرس فظ لا يطاق، ولكن مادامت الظروف قد حكمت عليها ان تتواجد في مكان مهجور مع شخص ما، فهي تشعر بالسرور لكونه هو ذلك الشخص، ولكن هذا الشعور المفاجيء، أحدث فيها صدمة عنيفة.

تساقط المطر في اللحظة التي انتهى فيها من ربط آخر ورقة نبات في مكانها. وشعرت غابرييل بأول قطرة من المطر تسقط على وجهها، ولكن سرعان ما تحوّل ذلك إلى مطر غزير جداً. لم تكن بحاجة إلى أمرٍ من دويل لكي تهرع إلى داخل الخيمة، تبعها دويل، وكان المكان واسع جداً ليحمي اعداداً أكثر منهما من المطر الغزير وألقت نظرة على جدار النباتات الخضراء فأثبتت بشكل مثير للدهشة، إن جدرانها تمنع دخول المطر فعلاً.

«كيف علمت أن المطر سيهطل بهذا الشكل؟»

فأجاب: «هذه هي الغابات الممطرة.» وتنهد حين رأى نظراتها الحائرة. «المطر هنا يهطل يومياً على مدار السنة، وذلك حول الرابعة عصراً. انك لست بحاجة لأن تكوني عالمة بالأرصاد الجوية لتعرفي ذلك. فهذا يحدث منذ زمن طويل وإلى أن يدمر طمع البشر هذه الدورة.»

كان في صوته العميق قساوة، فنظرت غابرييل إليه مستغربة، وعندما ادركت أنه لم يكن يقصدها هذه المرة، قالت: «اتعني اننا إذا بقينا نقطع الأشجار فإن ذلك سيغير من نظام الجو؟ يبدو هذا بعيداً عن التصديق، أليس كذلك؟»

«البعيد عن التصديق هو أن يعبث الناس بأشياء بمثل هذه الأهمية.» وخلع قبعته ليلقي بها على الأرض تابع: «اجزاء هائلة من الغابات تدمر كل يوم لبناء الطرق الرئيسية، أو لإخلاء مساحات للزراعة، أو لمجرد استغلال اخشابها. فإذا استمر الأمر على هذه الحال، يقدر الخبراء ان غابات الأمازون الممطرة هذه ستختفي بحلول عام ٢٠٢٠، عندذاك، لن يمكن التكهن بمدى تأثير ذلك على المناخ في العالم.»

«هذا مخيف، لا بد أن يكون هناك ما يمكن عمله لإيقاف هذا الدمار.»

فلاح على شفتيه شبه ابتسامة. «ماذا؟ لا يمكنك ان تلومي حكومة البرازيل لمحاولتهم في تحسين الإقتصاد عندهم ولتوفير أرض الزراعة لفقرائهم. لقد استغلوا البلاد لسنوات، وقد آن الأوان الآن لعمل شيء فيه مصلحة لكل إنسان، وليس فقط مصلحة عدد قليل من الأثرياء الذين يريدون أن يزدادوا ثراء.»

لم يفت غابرييل، أن تلحظ لهجة الإدانة في صوت دويل. وقالت: «لماذا يخامرني شعور بأنك تشير اليّ في ذلك؟»

«هذا إذا كنت أنت من هذا النوع، يا غابي.»

نظرت إليه قائلة: «لا أدري ما هو دوري في مشكلات هذه البلاد.»

«ربما ليس لك دور، ولكن هل تحاولين ذلك إذا استطعت؟ أعني، يا غابي، كيف تقضين يومك بالضبط من لحظة استيقاظك في الصباح، إلى وقت ذهابك إلى النوم، ما الذي تعطينه لهذا العالم مقابل الكثير الذي اعطاك؟»

«كف عن مناداتي بهذا الاسم السخيف، وقد اخبرتك مراراً بأنني لا أحبه. وبالنسبة إلى ما أفعله... فأنا، بصراحة، لا أرى ذلك من شؤونك.»

«ربما هذا صحيح، ولكنني اعترف بأن هذا يثير فضولي. فليس من السهل ملء فراغ يومك بوجبات الغداء، والتسوق، وزيارات أمكنة التجميل. أعني أنك تبدين لي إمرأة على قدر كاف من الذكاء، ألا تجدين هذا كله مملاً بعض الشيء، يوماً بعد يوم؟»

كان يسخر منها بصوته المنخفض، ما ذكرها بتساؤلها الأخير، عن طبيعة حياتها التي تعيشها، لقد اعاد إلى ذهنها صورة لحياة سطحية خالية من أي هدف وقريبة جداً من حقيقة ما قاله، ولكن غابرييل كرهت منه ان يشعرها بالذنب. فنظرت إليه بكبرياء لا تريد الاعتراف بأنها كانت فعلاً تعاني من هذه

التساؤلات، لم تشأ أن تشعره بالرضى فيعلم أنه كان مصيباً في كلامه. فقالت: «لماذا اكره حياتي؟ فلدي كل ما أريده واحتاجه.»

«هل لديك ذلك حقاً؟» وابتسم ببطء ونظر إليها مستهزئاً مما جعلها تتحرك بضيق. وسمعته يضحك بلطف. ويقول: «انك آنسة ذات عزم، يا غابي، فأنت لا تريدين الاعتراف بأنني على حق.»

فقالت: «لو كنت على حق، يا دويل، لكنت اعترفت لك بذلك، ولكنني اراك بعيداً عن الحقيقة. هناك كثيرين يتمنون لو تتاح لهم الفرصة باستبدال حياتهم بحياتي.»

«ربما، ولكنني واثق من أن كثيرين منهم سيتوقون إلى العودة إلى حياة أقل رفاهية حالما يتذوقونها. كم تبلغين من العمر؟»

«أرجو المعذرة؟ ما هو شأنك في عمري؟ بل ما شأنك في نوع حياتي وما يتعلق بها؟»

فهز كتفيه قائلاً: «إنه مجرد تبادل حديث لا اكثر، فأمامنا اياماً طويلة مملة إذا لم نتحدث مع بعضنا.»

كان هذا منطقاً غريباً جعل غابرييل تكبح كلمات كادت تنطق بها، فحاولت ان تتكلم بمثل هدوئه. «انني في الثانية والعشرين. كم يبلغ عمرك أنت؟»

فقال باسماً: «انني في الرابعة والثلاثين. هذا يعني أنني اكبرك باعوام كثيرة، وضعف هذا، كما أظن، بالخبرة.»

لم تعجبها سخريته تلك. «صحيح انني لا أملك خبرتك التي تتحدث عنها، إلا أن هذا لا يعني انني طفلة صغيرة

كما تريد أن تتصورني، فقد رأيت أشياء من العالم، يا دويل.»

«ما رأيته كان دوماً ممهداً بثراء اسرتك، أليس كذلك؟ لم يتوجب منك قط أن تقفي على قدميك وتشقي طريقك في الحياة بنفسك.»

لم تحتجّ من انتقاده هذا، كما أنها لم تجد رغبة في ذلك، ولكنها رفعت فقط حاجبها متسائلة. فابتسم دون ان يبدو عليه الضيق لردة فعلها هذه. «إن هذه الظروف هي تجربة جديدة بالنسبة إليك، يا غابي، أليس كذلك؟ أعني يوجد، في هذه الأدغال، من يمهد لك طريقك، أو من تعتمدين عليه سوى نفسك. لأول مرة في حياتك، ستعرفين نوع المادة التي تكونت منها!»

«وأنت لا تظن انه بإمكاني تدبير أمري، أليس كذلك؟» وضحكت عالياً شاعرة بالإرتياح وقد أدركت ما يرمي إليه. «حسناً، إذا كان هذا تحدياً منك، فأنا أقبله. فكل ما بإمكانك مواجهته، يا دويل، بإمكاني أنا أيضاً مواجهته.»

«سنرى إذن، والآن اقترح عليك أن تنالي قسطاً من الراحة إلى أن ينتهي المطر، فمتى انقطع سنشرع في السير مرة أخرى... طالما بامكانك ذلك.»

لم تكلف نفسها عناء الإجابة ووضعت رأسها على ذراعها ثم أغمضت عينيها. كان يثير الحنق بغروره وثقته بأنها لا تستطيع مواجهة الصعاب مهما كان. كان النوم قد ابتدأ يستولي عليها عندما خطر ببالها فجأة أن دويل ربما هو اكثر ذكاء مما كانت تحسب. فإذا انهكها التعب سيكون

هو في موقف صعب إذ يتعين عليه أن يتحمل وحده مسؤولية الوصول إلى خلاصهما. ولكنه بطرح هذا التحدي لها، فقد ضمن انها ستبذل ما في وسعها لكي تبقى في مستواه دون تخاذل.

لماذا كل هذا التكتم، والخداع، والمكر... واستغرقت في النوم العميق بعد ذلك وقد انهكها التفكير.

الفصل الثالث

شعرت وكأن الوسادة تحتوي على حجارة، فوضعت غابرييل يدها تحت خدها لكي تمهدها، ولكنها جمدت عندما وقعت يدها على شيء لا يشبه وسادتها الحريرية الناعمة. وببطء، ورقة، أخذت اصابعها تتلمس ذلك القماش الخشن الصلب، وعبست حائرة.

«هيا انهضي يكفيك هذا القدر من النوم.» هذا الصوت القاسي جعلها تفتح عينيها الناعستين، متسائلة عما يحدث، ومالبث الإدراك أن عاد إليها بعنف.

نظرت إليه وقالت: «لماذا لم توقظني قبل الآن؟» فرفع حاجبه بخفة.

وأجابها قائلاً: «ولماذا اوقظك؟ كان واضحاً انك بحاجة إلى راحة.»

نظرت إليه بضيق وهي تشعر بالإمتعاض. «لم تكن لدي فكرة من أنني قد انام طويلاً.»

«هذا حسن، والآن بما انك استيقظت تماماً، أرى ان نشرع بالمسير، امامنا مسافة لا بأس بها علينا أن نجتازها ولهذا لا يمكننا إضاعة الوقت.»

خرجت من الخيمة واخذت تنظر حولها آملة أن يكون قد تغير شيء، ولكن هذا لم يحدث، كان ذلك الجدار السميك من النباتات والأشجار ما يزال يحيط بهما، والشيء الوحيد الذي تغير الآن هو أن لونه قد

www.elromancia.com

اصبح داكناً اكثر مما كان، كما كان الهواء اكثر رطوبة.

«هاك، علينا أن نأكل شيئاً قبل الشروع بالمسير.» وناولها لفافة أخذت تحدق فيها بفضول للحظة قبل أن تفتحها وتحملق في بسكويت غير شهي.

«يبدو مقززاً للنفس.»

فتجاهل لهجتها وهو يقضم واحدة منها قبل أن يجيب: «ربما يخفف عنك أن تعلمي أن هذا البسكويت يحتوي على كل ما يحتاجه الجسم من فيتامينات ومعادن.» وقضم واحدة مرة أخرى، ببطء وهو ينظر إلى غابرييل وهي تتذوق قطعة صغيرة عبست بعدها، فتابع قائلاً: «طبعاً، إذا لم تعجبك فهناك دوماً ما تمدنا به أمنا الطبيعة من مخزنها.»

وبدا في لهجته شيئاً حذّرها من السؤال عما يقصد بذلك، ولكن يبدو أن أفكارها كانت ماتزال مشوشة من أثر النوم، فسألته: «وما هو ذاك؟»

«قردة، حيات، سحالي. واظنها لذيذة الطعم بشكل خاص هذا إذا استطعت القبض على صغارها.»

فحملقت بوجهها الساخر: «آه، هاها... ما ألطف هذا! شكراً، ولكن اظنني سآكل هذا على كل حال، إذ يبدو أنه افضل ما موجود.»

«ما الذي كنت تتوقعينه يا غابي؟ آنية طعام فضية في وسط الادغال هذه؟» وكان صوته حافلاً بالسخرية العميقة.

«كلا، لم أتوقع مثل ذلك. لماذا لا تكف عن السخرية

بي، يا دويل؟ انني لم أسىء اليك بشيء. أسكت إذن.»

«بكل سرور، مادمت تدركين أننا لسنا في نزهة، إن أمامنا رحلة طويلة متعبة. مفهوم؟»

«تماماً.» وأكلت بقية البسكويت الجاف، مرغمة نفسها على انهاء كل الفتات، ثم نظرت إليه متحدية. «انني مستعدة وقتما تشاء.»

فلم يزد على أن هز رأسه، ثم نظر في البوصلة المثبتة على مقبض سكينه قبل أن يتجه إلى جدار النباتات ويبدأ في قطعها بعنف، وسارت هي خلفه، ولكنها ما لبثت أن توقفت وهي ترى حقيبة الظهر ملقاة على الأرض، وتنهدت بعمق ونظرت إلى دويل بحقد ثم ذهبت تلتقطها وتحملها على ظهرها وهي تتبعه إلى داخل الدغل.

انه يملك السلطة عليها حالياً، إنما وبعد عودتهما إلى حيث الحضارة، كل هذا سيتغير. ستجعله يدفع ثمن كل معاملة سيئة عاملها بها. من كلمة أو فعل، إن هذه الفكرة تساعدها على المضي قدماً صابرة ومتحملة كل شيء.

وعندما توقفا أخيراً لقضاء الليل، كان الوقت ظلاماً تقريباً، وكانت غابرييل قد اجتازت الميل الأخير في سير آلي جاد إلى درجة أنها، عندما توقف دويل فجأة، كادت تقع. وقفت مكانها وهي تشعر بالتعب الشديد وتريد ان تفترش الأرض حيث هي لتنام مدة اسبوع كامل. ولكن يبدو أن دويل لم يكن في نيته السماح لها بمثل هذا الأمر، فرفع الحقيبة عن ظهرها ووضعها على الأرض ليخرج منها المصباح اليدوي الذي ألقى

شعاعاً في أنحاء تلك الأرض الصغيرة المساحة التي اكتشفها بين الأشجار، وأخذت غابرييل تراقبه بصمت وهو يفتش في الحقيبة مخرجاً منها كوباً من الصفيح ناولها إياه، قائلاً: «خذي هذا وحاولي أن تملأيه بالماء.»

حدقت غابرييل في الكوب قبل أن تعود فتستدير إلى دويل الذي كان الآن يخرج من الحقيبة أشياء أخرى غامضة: «من أين ساحضر الماء؟ هل هناك جدول أم شيء مشابه؟»

فتنهد بصبر فارغ وهو يقف ليأخذ منها الكوب. «كلمة شيء مشابه تكاد تكون صحيحة، هيا، اتبعيني وسأكشف لك سر الأدغال.» ولم تعجب لهجته غابرييل، ولكنها وجدت الصمت اسهل عليها من الجدل وهي في هذه الحال من الإرهاق، وهكذا تبعته إلى حيث الأشجار وأخذت تراقبه بعجب وهو يجذب ورقة نبات مثنية إلى أسفل بحيث انسابت منها مياه المطر إلى الكوب في يده، ونظر إليها بسرعة ثم ناولها الكوب. «هل تعلمت هذا؟ هل بإمكانك القيام بهذا العمل؟» واستدار عائداً من حيث أتى، ولكنها لم تدعه يسخر منها هكذا ثم يذهب، فأخذت تحملق في وجهه المتعجرف وقد لمع الغضب في عينيها: «انك لا تدع فرصة تفوتك دون ان تسخر بها مني، أليس كذلك؟ ما هذه الحال معك؟ هل اعتدادك بنفسك هشّاً بحيث يحتاج إلى ما يعززه طوال الوقت وذلك بإظهار مدى مهارتك؟»

تراجعت خطوة إلى الوراء عندما رأت نظراته الحاقدة

حين قال: «ان اعتدادي بنفسي بأحسن حال، يا غابي، ولا يحتاج إلى ما يعززه. على كلٍ فأنا لا يهمني مطلقاً ما قد تظنينه بي؟ إن كل ما يهمني هو العمل معاً لكي نخرج من هذا المأزق الذي نحن فيه، ولكن إذا أردت أن تنساقي وراء الأوهام فتنحي جانباً وكوني ضيفتي، والآن إذا كنت واثقة من أن بإمكانك القيام بهذا العمل، فسأذهب أنا لاشعال الموقد.» وألقى نظرة شاملة حول المكان الذي بدا في ضوء المصباح الخافت، معتماً تملأه الظلال. «بعد حوالي نصف ساعة، ستغمر الظلمة الحالكة المكان، لهذا اسرعي بالعمل وإلا فسيكون عشاؤنا نفس ما كان عليه غداؤنا. وأنا واثق من أن ذلك لن يعجب سيادتك.» وضحك بشكل لا ينم عن الهزل وإنما عن سخرية باردة. «هذه الرحلة الصغيرة المسلية ستكون خشنة قاسية بالنسبة إلى احساسك المرهف، أليس كذلك يا غابي؟»

ها هو يعنفها مرة أخرى، ويسخر منها، فاستدارت إليه غاضبة. «إنها لن تكون اكثر قسوة علي منها عليك.»

«اتظنين ذلك؟» لماذا لا يكون هذا ولديك كل ما تحتاجينه من مال؟ انك تعيشين حياة مريحة ما جعلتك غير مستعدة لمعاناة خشونة هذه الأيام التي تمر بك.»

نظرت إليه باشمئزاز: «ربما ليس لدي فكرة عما قد يكون بانتظارنا، ولكن هل هو ذنبي ان لم يصادفني مثل هذا الوضع من قبل؟ انني لا املك شيئاً إزاء

شخصيتي هذه ولا نوع الحياة التي احياها، ومع هذا أراك تنظر إلى ذلك وكأنه جريمة، انك لا تسمح لي بفرصة أثبت لك فيها خلاف ذلك، يا دويل، ولا ادري السبب في ذلك.»

لم يعلّق على كلامها واستدار عائداً إلى الحقيبة ليفتش فيها. «إذا أردنا أن نجهز شيئاً نأكله قبل حلول الظلام، فعليك أن تبدإي بتجميع الماء.»

لقد أزعجها ما حدث ولم ترد الإعتراف به، أترى ذلك التعبير السريع الذي رأته على ملامح دويل، لم يكن سوى من تصوراتها؟ تلك اللمحة من الألم والمرارة؟ وألقت نظرة إلى حيث كان دويل، تمعن النظر في خطوط وجهه الجانبية القوية، لتدرك أن تلك لم تكن مجرد تصورات منها. ثمة شيء في ماضي دويل، شيء هو السبب الذي جعله يتصرف معها بهذا الشكل... وتاقت نفسها، فجأة، إلى أن تعرف حقيقة ذلك الشيء.

التقطت كوب الصفيح عن الارض، ثم سارت نحو الأشجار وأخذت تملأه من مياه المطر، وهي تكافح للتخلص من التفكير في ما حدث. وما عليها أن تكثرت لما قد يكون حدث لدويل من احباط فيما مضى، فتلك هي مشكلته الخاصة. ولكن هذا لم يكن صحيحاً، ذلك أن غابرييل مارشال، الفتاة التي لم تكترث قط من قبل برأي الآخرين فيها، تشعر فجأة بأنها تريد من هذا الرجل، هذا الرجل الغريب الفظ المتغطرس ان يشعر نحوها بالمودة والاحترام.

كان مذاق الحساء الذي صنعه دويل، أشبه بمذاق

رحيق الزهور. ورشفت غابرييل منه راضية، ثم ناولته إلى دويل، حيث اخذت تنظر إليه وهو يشرب ما بقي في الكوب. ثم وضعه على الأرض ونظر إليها. كان قد ترك الموقد الصغير مشتعلاً، فبدا وجهه في ذلك اللهب قاسياً نائياً غامض الملامح. فتحركت غابرييل بضيق، وأخذت تلهي نفسها بالنظر إلى يديها. لم يتبادلا الكلام منذ ان جلسا لتناول الحساء الذي صنعه دويل بمزج ماء المطر بشيء أخرجه من الحقيبة. ولم تستطع إرغام نفسها على الكلام إلا بعد أن نهض متوجهاً إلى الأشجار، فسألته: «إلى أين أنت ذاهب؟»

كان في صوتها شيء من الفزع ما جعله يقف فجأة وهو ينظر إليها رافعاً حاجبه ليقول ببساطة: «لا تقلقي، فلن أتأخر.»

حملت الكوب وسارت إلى الجانب الآخر من الأرض لكي تغسله، ولتعود بعد ذلك إلى حيث كانت الحقيبة ملقاة قرب موقد النار، فوضعت الكوب فيها، وهي تبتسم ساخرة. لو أن أمها رأتها تفعل ذلك لما صدقت ما تراه عيناها.

«ماذا يضحكك؟»

فقفزت وهي ترى دويل يظهر أمامها فجأة، وخطت إلى الوراء فاصطدمت قدمها بالموقد.

«حذار.» واسرعت تبتعد بعيداً عن اللهب الذي كاد ان يطالها، وتابع: «ما بك أيتها الآنسة، كيف تكونين بمثل هذه اللامبالاة إزاء نار مشتعلة؟»

بان العنف في عينيها وهي تجيب: «لو لم تعد بخفة الهر، لما حدث هذا.»

وبدا للحظة أنه سيجيبها بمثل حدتها، ولكنه عاد فتمالك نفسه ليرمقها بعدم اكتراث وقال: «الأفضل أن نرتاح الآن. فعلينا أن نشرع في السير حال بزوغ الفجر.»

ألقت غابرييل نظرة حولها وأرغمت نفسها على القول بمثل هدوئه: «هل سنبني خيمة أخرى؟»

هز رأسه نفياً ثم قال: «لا ضرورة لذلك... فالمطر لن يهطل وبالتالي فليس ثمة فرق سواء احتمينا تحت سقف أم دونه.» وأشار إلى الأرض قرب الموقد، متابعاً: «إن هذا المكان مثل أي مكان آخر. وأرى أن تربطي اسفل بنطلونك بقطعة من ذلك الخيط. انك، بهذا تبعدين عنك اكثر الحشرات.»

خافت غابرييل من هذه الفكرة، ولكنها لم تقل شيئاً وأخذت تفتش في الحقيبة عن الخيط، ثم تقطع منه قطعتين مناسبتين قبل أن تنظر إلى دويل، وسألته وهي تريه كرة الخيط في يدها: «اتريد شيئاً منه؟» ولكنه هز رأسه نفياً وهو يسحب قبعته على عينيه.

استغرق منها ربط أسفل رجلي بنطلونها عدة دقائق ولكنها، مع ذلك، بقيت تشعر بالإشمئزاز من النوم على الأرض وهي تفكر في تلك الحشرات المجتمعة في انتظارها لكي تنتشر زاحفة فوقها حالما تنام.

«لا يمكنك أن تبقي مستيقظة طوال الليلة، يا غابي، انك بحاجة إلى النوم.»

«إنني... بخير، فلا تهتم بي، أنا لم أشعر بعد بالتعب.»

«كلا؟» وأزاح قبعته إلى الخلف لينظر إليها نظرات هازئة: «ولكنني أرى الإرهاق يتملكك، أيتها الآنسة.»

«حسناً، انك مخطىء. فأنا... أشعر بأنني في أحسن حال. إنني سأجلس فترة هنا، ثم... ثم...» وسكتت إذ لم تعرف ماذا تقول، إن الحق مع دويل في أنها بحاجة إلى النوم. فتلك الرحلة الطويلة في النهار قد ارهقتها واستنفدت قواها ما جعلها بحاجة ماسة إلى استعادة تلك القوى، ولكن كيف تغمض أجفانها وهي تفكر في تلك الحشرات التي في انتظارها؟

فقال: «هل تمتعين نفسك بهذه المناظر؟» وجلس يمد يده إلى الموقد الصغير: «آسف، يا غابي. إنما علي أن اطفىء هذا الموقد إذ ليس بإمكاننا تبذير ما فيه من غاز.»

وأدار مفتاح الموقد ثم أخذ يتابع، بصبر، تقلص اللهب إلى أن تلاشى تماماً، تاركاً إياهما في ظلام دامس، فتنفست غابرييل بحدة وقد تملكها الخوف. وسمعت حفيفا على مقربة منها بينما كان دويل يعود إلى النوم، وبدا هذا الحفيف في سمعها المرهف عالياً غير طبيعي. فتكورت على نفسها خائفة، ثانية ركبتيها إلى صدرها، محاولة أن تجعل من نفسها صغيرة الحجم قدر الإمكان في هذا الظلام الذي يلفها من كل جانب: «هل أنت خائفة.»

كان صوته عميقاً فعضت شفتها إذ تصارع في نفسها الخوف والكبرياء. ولكنها قالت بسرعة. «كلا، لست خائفة.»

«كما تشائين. أرجو لك احلاماً سعيدة، يا غابي.»

فعادت تسمع نوعاً آخر من الحفيف ساد بعده الصمت، فأرهفت سمعها وهي تحاول سماع أنفاس دويل، فقط لتطمئن إلى أنه مايزال موجوداً، ولكنها كلما أرهفت أذنيها، إزدادت الأصوات التي تسمعها... كانت أصوات لم تستطع تمييز كنهها.

أترى ذلك الصوت الزاحف هو لحية تتقدم نحوها؟ وذلك النقر المتواصل... هل يمكن أن يكون...؟ وعندما علت فجأة زعقة حادة أقوى من أي صوت حولها قفزت هي بدورها صارخة بفزع تريد الهرب إلى أي مكان، ولكنها ما أن ابتعدت خطوات، حتى سمعت صوت دويل صارخاً.

«تباً لذلك، يا غابي. إنه قرد فقط، يا غابي. وهو لن يؤذيك. وربما هو الذي كاد يموت فزعاً من صرختك.»

بالرغم من كلامه الجاف هذا، شعرت بالاطمئنان وسرعان ما ابتدأت مخاوفها تتلاشى.

ثم قال: «لا بأس عليك الآن وإذا كنت واثقة من انك لن تندفعي هاربة مرة أخرى، هل نستطيع الحصول على شيء من النوم؟» كان صوته قد عاد إلى برودة وعدم اكتراثه، فأجابته بمثل لهجته: «أنا بأحسن حال،

وآسفة لإزعاجي لك.» وحاولت ان تريح نفسها رغم وعورة الأرض. وأغمضت عينيها تحاول النوم من جديد.

www.elromancia.com

الفصل الرابع

عندما استيقظت غابرييل في الصباح، لم يكن ثمة أثر لدويل، فبقيت لحظة تحدق حولها من خلال الضباب الذي كان تصاعد من الأشجار، بينما تحاول التخلص من بقايا أحلام مزعجة لم تستطع أن تتذكرها تماماً. ثم تنهدت طويلاً وهي تنهض، وذلك في اللحظة التي لمحت فيها دويل خارجاً من الدغل.

انحنى ليشعل الموقد، وهو يقول: «هناك جدول وبحيرة بين تلك الأشجار. الماء بارد ولكنه حسن لغسل بعض الأقذار عن وجهك. اذهبي وجربيه إذا شئت بينما أصنع أنا هنا بعض القهوة.»

فأومأت قائلة: «يبدو أنها فكرة حسنة.» وابتعدت عنه متجنبة النظر إليه، ثم سمعته يضحك بخشونة.

«آسف، يا غابي، فقد نسيت رقة احساسك وتهذيبك.»

فوقفت في الحال وقد تملكها الخوف، وقالت: «ليس لدي فكرة عما تتحدث عنه.»

«لقد نسيت ان امرأة مثلك تشعر بالاشمئزاز لمثل هذه الحياة البدائية التي تصادفنا.»

كان يسخر منها بكلماته هذه، بينما لهجته تكاد تكون مهينة، ولكن كان من الصعب عليها أن تجيبه. فابتعدت عنه مسرعة نحو الاتجاه الذي كان أشار إليه، وهي تشعر بالانزعاج الشديد من هذه الظروف التي تعيشها.

الى متى ستطول بها هذه الأمور التي تجبر نفسها على التأقلم بها.

بقيت هذه الأفكار تشغلها وهي في طريقها خلال الأشجار إلى أن وقعت عيناها فجأة على البحيرة. نظرت حولها وهي لا تكاد تصدق أن هذه البحيرة يمكن أن توجد في وسط هذه الأدغال. كان الشلال الخفيف الفضي الذي يتساقط من الصخور في بركة ضحلة تحته، رائعاً وكأنه لوحة رسم. كما أن الأزهار الاستوائية الغريبة كانت تحيط بالبحيرة، تماثل بألوانها البراقة ألوان الطيور التي كانت تعلو وتحط فوق الرؤوس. وأخذت غابرييل تحدق في طائرين أحمري العرف يقفان على شجرة قريبة، قبل أن يهبطا إلى البحيرة. كان المكان بأجمعه يمثل واحة من الجمال وسط خشونة الأدغال القاسية تلك، وتمنت لو تبقى هناك طويلاً مستمتعة بالمكان، ولكن الوقت، وكذلك دويل لن ينتظرا أحداً.

وبدأت تغسل يديها ووجهها، كما صبت بعض الماء البارد على شعرها، ثم انزلت رجليها في الماء وبدأت تحركهما بسعادة

«اني أكره افساد سعادتك هذه، يا غابي ولكن ليس بإمكاننا تضييع النهار. أسرعي لأن علينا أن نشرع بالمسير.»

واستدار ليعود من حيث جاء، لكن غابرييل اجابته متحدية: «سأعود عندما أكون مستعدة وليس قبل ذلك.»

وقف دويل في مكانه، واستدار لينظر إليها، قائلاً: «أرجو المعذرة. لم أسمعك.»

فشعرت بانزعاج لسماعها صوته، ولكنها تجاهلتها وهي تقول: «بل أنت سمعتني.»

فعاد إلى البحيرة يقف على ضفتها وعيناه تلمعان بشدة: «آه، لقد سمعتك تماماً يا غابي، ولكنني لم أكن لأصدق ما سمعت.»

فرمقته وهي تلقي صوبه بملء يدها ماء أصاب بعض رشاشه حذائيه: «لا أدري ما هي المشكلة. لقد سبق وأخبرتك بأنني سأعود حالما أكون مستعدة لذلك، ولهذا...»

«ولهذا فأنت تريدينني أن أبقى متسكعاً في انتظارك، هل هذا صحيح؟»

فابتسمت قائلة: «طبعاً، ليس بإمكانك أن تذهب بدوني، أليس كذلك؟»

فبدا عليه التفكير لحظة قبل أن يجيب: «هذا شيء مثير للجدل، كما أظن. ولكنني أتصور أنك مقتنعة بأنه من غير الممكن أن أذهب بدونك، رغم أن الفكرة تبدو جميلة نوعاً ما.»

ولم يعجب غابرييل اللهجة التي تضمنها صوته دون أن تعرف السبب. وأخذت تنظر إليه بحذر وهو يبتعد عدة خطوات بعيداً عن ضفة البحيرة.

كان هذا اليوم شبيهاً تقريباً باليوم الأول. فقد فقدت غابرييل احساسها بالإتجاهات وهما يشقان ممراً خلال الأدغال. لم يكن لديها فكرة عما إذا كان دويل يسلك

الاتجاه الصحيح أم لا، ولكنها في الحقيقة لم تكن لتهتم لذلك. لم يكن باستطاعتها تحمّل قلق كهذا في الوقت الذي كان عليها فيه أن تبذل كل قوتها وعزمها فقط لكي تستطيع مجاراته.

أقاما خيمة أخرى قبل أن يهطل المطر من جديد. فجلست غابرييل في داخلها وهي تشعر بتعب شديد، انه لم يوجه إليها كلمة منذ تركها عند البحيرة، كما أنها من جهتها لم تحاول اختراق هذا الصمت. كانت خائفة من أنها باسترسالها في الكلام، قد تخرج من بين شفتيها كلمات لن تكون نتيجتها سوى الندم، وعندما ينتهي كل هذا، ويعودان بالسلامة إلى الحياة المتحضرة، ستنسى كل ما حدث وتخرج دويل من ذهنها، إنما من المستحيل عليها ذلك الآن وعند كل لفتة منها تقع عيناها عليه.

أغمضت عينيها لتزيل تلك الصورة، ولكن هذا لم يفدها بشيء، واستغرقت أخيراً في نوم مرهق وقد نقشت الصورة في ذهنها لكن دويل ايقظها بعد فترة. حدقت في وجهه لحظة بعد اذ امتزجت الصورة بالحقيقة.

سألته بخشونة: «هل حان الوقت للشروع في السير؟»

كان قلبها يخفق بسرعة ومع ذلك فقد كانت تشعر بالدوار نوعاً، وهذا بسبب ايقاظها المفاجيء.

هز دويل رأسه بسرعة، قبل أن يلتقط كوب الصفيح يقدمه إليها: «إننا لن نعود إلى متابعة السير اليوم. اشربي هذا فهو سيفيدك.»

ناولها الكوب فأخذته من يده وارتشف ما بداخله

من الحساء، ثم قدمته له وهي تشعر بشيء غريب من ابتسامته. لم يحدث أن ابتسم لها بهذه الطريقة من قبل. فقد كانت ابتساماته دوماً مغلفة بالسخرية. ولكنها الآن أصبحت تشع خالية من هذا الشيء. نظرت إلى الكوب وهي تميله بيدها تدفع بذلك محتوياته من جانب لآخر بينما تحاول أن تفهم كيف بإمكان ابتسامة واحدة أن تجعلها تشعر بالفرح ولكنها ما لبثت أن أدركت أنها لم تسمع جوابه، فسألته: «أنا... أنا آسفة. ماذا قلت؟»

«قلت إنني كنت تناولت شيئاً من الحساء أثناء نومك. فاشربيه كله يا غابي.»

فرشفت جرعة أخرى من الحساء الدافىء، ثم قالت: «كان عليك أن توقظني قبل الآن. هل يسمح لنا الوقت التوقف عن السير بقية هذا النهار؟»

هز كتفيه وهو يخلع قبعته الرثة ويلقي بها إلى الأرض.

«ليس ثمة فائدة من اجهاد أنفسنا. إننا لن نحصل على شيء إذا نحن أصبحنا من الارهاق بحيث لا نستطيع اكمال الأميال القليلة الأخيرة.»

وفكرت غابرييل في أنه يعنيها هي بذلك، وليس هما الاثنين. فقالت وهي تضع الكوب على الأرض: «إذا كنت تعني أنني أنا التي أحتاج إلى الراحة لأنني لا أستطيع متابعة اجتياز المسافة المقررة، فدعني أخبرك أيها السيد بأنك مخطىء إلى درجة كبيرة. إن بإمكاني القيام بأي عمل تقوم أنت به. أنا أكرهك،

يا دويل. إنك بالغ الحقارة وإذا كنت تظن لحظة أنني مهتمة بأن... بأن ارضى عنك فأنت مخطىء إلى درجة كبيرة.»

وأخذ يحدق في وجهها الغاضب وقد بان الغموض على ملامحه: «لا أذكر أنني ذكرت شيئاً عن رضاك عني، يا غابي لقد كنت أتحدث عن الغضب ولكن ربما كنت تفضلين تغليف طباعك السيئة بصفة اخرى.»

ضحك وتابع النظر في عينيها، فرأت السخرية المهينة في ملامح وجهه: «حسناً، إنك على الأقل مستعدة لقول الصدق أحياناً. ومعك حق طبعاً فإن طريقتك في الحياة ليست من شؤوني عادة، ولكن ما دمنا معاً هنا، فعلينا أن نتصرف تبعاً لمبدأ أساسي. فأنا لا أريد أن أكون خادماً عندك يا غابي، ولا بأي شكل، مفهوم؟»

كان مفهوماً لديها تماماً، وبكل وضوح، وثار غضبها لغطرسته هذه: «تماماً ولكن دعني أوضح لك أن لهذا ناحيتين، يا دويل.» وألقت عليه نظرة هي أقرب إلى الإهانة وهي تميل برأسها بعصبية وتابعت: «إذا كنت تعتقد بأنني قد ارضى على تصرفاتك، فأنت مخطىء. لأنك لست النوع الذي احترمه يا دويل.»

«إذن، لست راضية عني، يا غابي؟»

أجابت بحدة: «نعم.» وسرعان ما أدركت خطأها، ذلك لأنه أخذ ينظر إليها بغضب شديد وحقد كبير، مما جعلها ترتجف خوفاً. ابتسم عند ذاك ابتسامة المنتصر، ثم قال:

«هل اخفتك يا غابي؟ أترين نظرتي هذه جيدة، أم تريدين ان اخيفك أكثر؟»

«نعم... أعني، كلا كفّ عن هذا يا دويل.» وأشاحت بوجهها، من الأفضل لها أن تصبر على هذا الوضع كي لا تتعرض لشيء آخر. وهكذا بقيت مشيحة بوجهها عنه بعزم: «يمكنك أن تكابري كما تشائين، ولكن هذا لا يغيّر شيئاً. فقد تريني دون مستواك لكنني أرى بالمقابل أخلاقك معدومة إلى درجة محزنة.»

ثم تابع: «والآن علينا أن نتجنب الحدة والغضب، وإلا فسنجد أننا أمام مشكلات أكبر من مجرد محاولتنا الخلاص من هذا الموقف الصعب.»

وخرج من الخيمة تاركاً غابرييل تحملق خلفه. كانت تريد أن تتبعه لتخبره بأنه مخطىء، ولكنه سيكرر ما سبق وقاله منذ برهة. وأغمضت عينيها وهي تستجمع شجاعتها التي ستكون بحاجة إليها في الأيام المقبلة. فكيف ذلك وهذا الجدال قد أصبح بينهما؟ كان أمراً مضحكاً في الحقيقة، فدويل يظنها فتاة تحيط نفسها بالثروة والرفاهية! فماذا سيقول لو أنها اثبتت له عكس ذلك؟

كانت الفكرة مشجعة إلى حد جعلت غابرييل تهم بالخروج من الخيمة لتتوقف فجأة حين أدركت ما الذي تقوم به، فإذا هي أخبرت دويل بذلك، فسيكون هذا خطأ منها. لقد وجد الاثنان في ظروف صعبة وسط هذه الادغال الموحشة تدفعهما الى الجدال في

كل مناسبة. وسيكون من الخطأ الفادح الاستمرار في ذلك.

www.elromancia.com

الفصل الخامس

استندت غابرييل إلى جذع شجرة شاعرة بالإرهاق والوهن، لقد عمل دويل بسرعة شديدة هذا الصباح إذ أخذ يضرب في الدغل بعزيمة صامتة تحداها بها على الاعتراض، ولكنها أمسكت لسانها حتى الآن. وعلى كل حال، إذا لم يتخلّ عن هذه السرعة الضارة حالاً، فستكون مرغمة على التقدم بنوع من الاحتجاج فليس بإمكانها الاستمرار بهذا الشكل طويلاً.

نظرت حولها إلى حيث كان يقطع النباتات، وأخذت تراقب مهارته في استخدام السكين مخترقاً بها جذع الأشجار. كان تبادل الحديث بينهما الليلة الماضية وهذا الصباح، قد بلغ الحد الأدنى بينهما. فقد التزم الاثنان التهذيب إلى حد مضحك، وبقي الحديث متوارياً منتظراً الفرصة ليظهر ثانياً. فهو لم ينته بكل تأكيد، وإنما أرجىء موقتاً. ولم تكن غابرييل تعلم ما إذا كانت هي متشوقة إليها أم انها تعيش في خوف من تلك اللحظة.

«هيا، لا يمكننا تضييع النهار بينما أنت سارحة بأحلام اليقظة.»

كان صوت دويل خشناً يبدو فيه الضيق بحيث جعلها تنتبه على الفور. فاندفعت من حيث كانت عند الشجرة، وأخذت تنظر إليه باسمة ببرود، وقد أزاح قبعته إلى

الخلف. لم يكن قد حلق ذقنه منذ أيام حين استقرا في الأدغال ما أعطاه مظهراً قاسياً.

«إنني لا أعيقك، يا دويل. أعني هل هذه طريقة جديدة تحاول أن تضعها، إذ تقطع ممراً خلال أميال كثيرة من الأدغال في وقت أقل مما قام به أول أحمق مسكين حاول ذلك؟»

فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة: «هل عجزت إزاء هذه السرعة، يا غابي؟»

«آه، إن بإمكاني متابعتك بشكل جيد، ولو أنني أعلم أن إدراكك لهذا سيشعرك بالخيبة. كل ما في الأمر هو أنني أشعر بالفضول لمعرفة السبب الذي يجعلك تعمل بهذه السرعة. من المؤكد أن هذا ليس مجرد رغبة منك في التخلص مني، هل صحيح هذا يا دويل؟ ألا تخاف من أنك ربما تجد صعوبة في الالتزام بما سبق وقلته أمس؟»

«ماذا جرى، يا غابي؟ الحقيقة أن ما يهمني الآن هو الخروج من هنا. إذن، دعينا نبتعد عن المناقشات المهلكة حالياً. وإذا أنت حاولت أن تستغلي طاقتك هذه في ناحية مختلفة، ربما لا تشعرين بالتعب.»

«أفضل الشقاء على أن أطلب منك مساعدة، يا دويل.» كان صوتها عالياً، ولكن دويل لم يجب وعاد للضرب في أعماق الدغل.

حدقت فيه وكانت تعلم أن الذنب ذنبها إذ كانت هي البادئة. لماذا تشعر دوماً بالرغبة في مناقشته كلما واتتها الفرصة، لتقذف في وجهه المتغطرس ما سبق وتجادلا به؟

لقد تعلمت منذ وقت طويل كيف تسيطر على أعصابها، فتواجه البلد وما يحويه من مضايقات تافهة بهدوء وضبط للنفس يثير الإعجاب والذي كانت تعلم أنه يمنحها مظهراً بارداً أمام كثيرين. ولكن يبدو من الصعب أن تتصرف بهذا الشكل مع دويل.

ضربت جذع الشجرة بقبضتها وقد تملكها الإحباط، لتشهق بعدها إذ نزل على رأسها وكتفيها فيض من الماء وأوراق الشجر. وعندما أخذت تبعد الأوراق وقد تملكها السخط، إذا بأصابعها تصطدم بشيء. فخافت وأطلقت صرخة ثاقبة عندما أخذ ذلك الشيء يتحرك.

«ما الذي حدث؟» كان دويل قد أصبح بجانبها، بينما كانت تكافح فزعة لتبعد تلك الحشرة التي التصقت على قميصها.

«هنالك شيء على قميصي... حشرة أو ما أشبه. ساعدني يا دويل.» كان صوتها ينبىء بهستيريا متصاعدة. وجد دويل فراشة خضراء براقة فأمسك بجناحها وعرضها عليها قائلاً: «لا بأس يا غابي، فهي لن تؤذيك. إنها غير سامة.»

فارتجفت غابرييل وهي تحوّل عينيها عن الفراشة الكبيرة: «لا أطيق النظر إلى شيء كهذا، سواء كان ساماً أم لا.»

ترك دويل الفراشة تطير بين الأشجار، ثم استدار ينظر إليها باشمئزاز: «كل هذا الاضطراب بسبب فراشة؟ اكبري يا غابي.»

«إذا كان لدي هذا الشعور نحو الحشرات الطائرة، فالذنب

ليس ذنبي.» ثم لاحظت فجأة ذراع دويل: «ما الذي حدث لذراعك. إنها تنزف دماً؟»

«لقد أصبتها بالسكين حين صرخت أنت فجأة.» وأخذ يحدّق في الجرح، ثم عاد ينظر إليها ووجهه ينبىء بالضبط عن رأيه فيها لصراخها ذاك بسبب شيء تافه: «ربما سيكون باستطاعتك السيطرة على نفسك عندما تواجهين، مرة أخرى، واحدة من هذه الفراشات غير المؤذية.»

فارتجفت غابرييل: «قد تكون غير ضارة، ولكنها ليست صغيرة. اسمع يا دويل، أنا آسفة إذ جرحت نفسك بسببي دعني اضمدها لك.»

ارادت أن تفكر عما سببته له، ولكنه تراجع الى الوراء: «دعيها. أظنني سأشفى من دون خدماتك والآن إذا كنت واثقة تماماً من أنه لم يعد هناك ما يعطلنا عن العمل، هل نباشر؟ إذا استمر عملنا على هذه الحال، فإن رجاءنا في أن يعثروا علينا سيتلاشى بشكل أسرع من صبري.»

وأخرج منديلاً من جيبه ربط به الجرح، ثم عاد إلى حيث كان يعمل دون أن يلقي نظرة خلفه حيث غابرييل.

فكرت غابرييل كلما أسرعا بالانفصال عن بعضهما كلما كان هذا أفضل لكليهما.

أخذت تنظر إلى الرجل الذي يدفعها إلى الجنون وذلك منذ أن جمعهما سوء الحظ معاً، وانتابها فجأة شعور مؤلم إذ فكرت في أنها بعد فترة قصيرة، ستفترق عن دويل ولن تراه بعدها. كان متغطرساً يثير الغيظ، عنيداً كما أنه جعلها تخرج عن طورها، ولكنه من ناحية أخرى جعلها تشعر بنمط حياة جديدة لم تشعر بها قط

في حياتها. ولن يكون سهلاً عليها عندما يفترقان، أن تعود مرة أخرى إلى شخصيتها الأولى التي كانت عليها.

وصلا إلى مجموعة من المنازل في نفس الوقت الذي ابتدأ فيه المطر بالهطول، فهما لم يتوقفا مرة أخرى، وكانا يأكلان ذلك البسكويت الجاف الذي عاد دويل يخرجه من الحقيبة، بينما هما مستمران في السير، وكانت هي ترجو أن تقترب اللحظة التي يعلن فيها دويل أنهما سيتوقفان للاحتماء من المطر، ثم تنفست بارتياح حين وقف فجأة عند حافة أرض فسيحة. وعلى كل حال، كان شعورها بالارتياح قصيراً عندما رأت البيوت تلك.

«دويل؟»

كان في صوتها نوع من عدم الاطمئنان، فألقى عليها نظرة هادئة، ثم عاد ينظر إلى حيث ابتدأ السكان بالتجمع أمام أكواخهم: «هوّني عليك، يا غابي هناك عدة مجموعات من الهنود الحمر ما زالوا يعيشون في الغابات الممطرة وهم عادة طيبون تماماً. لا أظنهم يتطلعون إلى أن يضعوك اليوم في قدر الطبخ، هذا اذا كنت محظوظة.»

فقالت بحدة وقد كرهت تهكمه هذا: «حسناً، لن يكون غريباً إذا هم لم يجعلوا منك وجبة لهم، أيها السيد فأنت غليظ وقد تصيبهم بعسر هضم.»

ومن المدهش أنه ضحك لهذا، وامتلأت عيناه بالمرح وهما تحدقان في وجهها الغاضب قائلاً: «من الصعب التغلب عليك. أليس كذلك يا غابي؟»

كان كلامه هذا اقرب إلى المديح ما جعل غابرييل تقف جامدة لتحدق فيه بذهول قبل أن تعود بانتباهها مرغمة إلى ما يدور عندما ابتدأت تلك المجموعة الصغيرة من القوم تتحرك نحوهما.

«دويل، أنا لا...»

فقال لها مطمئناً وهو يسير معها نحو القوم: «اهدأي فقط، يا غابي واتركي كل شيء لي.»

وكانت سعيدة جداً لتلبية هذا الأمر منه. وهكذا وقفت بجانبه صامتة عندما وقف هو أمام رجل منهم بدا عليه أنه القائد، ثم قال له شيئاً، وكان من الصعب على غابرييل أن لا تحدق بهما ذاهلة وهي ترى دويل يجري معه حديثاً لم تفهمه، بلغة الإشارات فسر فيها كيف وصلا إلى الأدغال. من أين تراه تعلّم لغتهم؟ من الواضح أنه لم يكن يتحدث اللغة بطلاقة، ولكنه كان على دراية كافية بها بحيث استطاع إفهامهم حيث أنها رأت الرجل يومىء برأسه متفهماً وعلى وجهه ابتسامة عريضة، أشار إلى أحد تلك الأكواخ المستطيلة المسقوفة بالقش، وكان واضحاً أنه يطلب منهما أن يتبعاه وهو يسير أمامهم مجتازاً تلك الرقعة من الأرض الفسيحة.

مشت غابرييل مع دويل تحاول ان تستمد منه الشجاعة وهي تسير بين القوم. ومدت عدة نساء أيديهن يلمسن شعرها وذراعيها معجبات بها. وحاولت هي جهدها لكي تصبر على لمسات ايديهن الفضولية، ولكنها سرت والرجل يدخلهما إلى الكوخ مشيراً إليهما بالجلوس على الأرض.

كان الكوخ واسعاً فأخذت تجيل نظراتها حولها. كان

هناك عدة أشخاص مجتمعين حول صبي كان نائماً على فراش. ورأت امرأة يبدو أنها أمه، كانت تغمس خرقة في ماء ثم تمسح بها وجهه وذراعيه النحيلتين، ولكن يظهر أن ذلك لم يكن يفيده كثيراً إذ أنه استمر في التقلب والتململ فوق الفراش.

قال الرجل الذي قادهم إلى الكوخ، شيئاً، فنهضت واحدة من تلك النسوة وخرجت من المكان لتعود بعد عدة دقائق حاملة صينية عليها بعض الطعام والماء وضعتها أمامهما على الأرض، لتعود بعد ذلك إلى مكانها قرب الطفل. وابتسم الرجل لهما مشيراً إلى الطعام لكي يأكلا. ولكن غابرييل نظرت متسائلة إلى دويل قبل أن تسأله بصوت خافت: «ما هذا؟»

فأخذ ما كان يبدو انه قطعة من خبز، ثم قسمه إلى نصفين ناولها أحدهما وهو يجيب: «إنه مجرد خبز وسمك. وهو طعامهم الرئيسي في هذه الأنحاء. إنهم يقطعون الأشجار منشئين بذلك أراضٍ فسيحة، ثم يحرقون الأشجار. وعندما يغسلها المطر، تصبح سماداً تمكنهم من زرع محصولاتهم.»

«فهمت.» وأخذت غابرييل تمضغ الخبز ببطء، ثم أخذت قطعة صغيرة من السمك وهي تبتسم للرجل الكبير في السن الذي كان ينظر إليهما، ثم قالت: «إنه شهي.»

فترجم دويل للرجل قولها هذا، فابتسم هذا وهو يومىء برأسه، طالباً لهما المزيد من الطعام. فقبلت غابرييل قطعة أخرى من الخبز وأخذت تمضغها وهي تنظر إلى دويل بفضول: «أين تعلمت لغتهم؟»

فهز كتفيه: «من المفيد دوماً أن يتعلم الإنسان عدة

كلمات من لغات الآخرين، كما أن هذه اللغة سهلة التعلم إذا شئت ذلك. إن لديَّ عقيدة منذ أن كنت أتلقى تدريبي وهو أن من المهم جداً أن يستطيع المرء التفاهم مع الآخرين ولو بالكلمات الأساسية.»

«تدريب؟ أي نوع من التدريب؟ كنت أظنك تدير مؤسسة لشحن البضائع.»

ولم تحاول غابرييل إخفاء دهشتها، فقال مراوغاً: «إن ذلك جزء من عملي، نعم ولكنه يتضمن أشياء أخرى متنوعة، يا غابي.»

وتحول يتحدث إلى الرجل، تاركاً غابرييل تشعر بأن ثمة شيئاً لم تفهمه. وأخذت تعود بأفكارها إلى ما سبق وعرفته عن دويل، ولكنه كان قليلاً، حتى الرسالة التي كان جدها قد أرسلها إليها مع دويل لم تكن تحوي سوى أن عليها أن تصحب حامل الرسالة الذي سيأخذها إلى حيث يقيم. وتمنت الآن فجأة لو أنها كانت زادت من أسئلتها، ولتحصل مزيداً من الأجوبة، وعرفت الكثير عن هذا الرجل الذي ابتدأ يمثل في حياتها دوراً هاماً.

وعادت تجول بنظراتها حولها، لتستقر على تلك المجموعة الصغيرة من النسوة اللواتي يحطن بالصبي. وما لبثت المرأة الشابة أن بدأت في البكاء بصمت، وقد بدا وجهها مثالاً لليأس ما جعل الألم يعصر قلب غابرييل، فنهضت دون تردد أو تفكير وتقدمت نحوها حيث جثمت بجانب الصبي، وهي تتمنى لو كان بإمكانها التكلم بلغتهم لكي تسأل عن طبيعة مرضه.

تراجعت النسوة تاركات والدة الصبي تواجه غابرييل،

التي حاولت أن تبتسم لها تطمئنها. ثم مدّت يدها تلمس وجنة الصبي، فذهلت للحرارة الشديدة التي شعرت بها. كان واضحاً أنه يعاني من حرارة مرتفعة جداً، كما كان واضحاً أيضاً أن اسعافات أمه له لم تكن تخفض من تلك الحرارة إلا قليلاً.

وعندما اقترب دويل منها، نظرت غابرييل إليه بشيء من التضرع: «إنه يبدو مريضاً جداً يا دويل. ألا يمكننا مساعدته؟»

فهز رأسه: «أشك في ذلك. فليس لدينا فكرة عن مرضه، حتى ولو كان لدينا فكرة، فأنا لست طبيباً، ولا أظنك أنت أيضاً كذلك.»

«ولكن لا بد أن هناك ما يمكننا عمله، ألا يمكنك سؤالهم عما إذا كانوا يعلمون ما هو مرضه؟» ونظرت إليه متحدية أن يرفض.

«ولماذا تهتمين بهذا المريض، يا غابي؟ فأنت لست مسؤولة عنه.»

ولم تستطع إخفاء احتقارها لهذه القسوة منه: «قد لا أكون مسؤولة عنه، ولكن هذا لا يعني أن أعود إلى الجلوس في حين قد يكون ثمة ما أستطيع مساعدته به.»

نظرا الى بعضهما فرأت على ملامح دويل شيئاً قبل أن يتلاشى بسرعة جعلتها تعتقد أنه لا بد كان من مخيلتها. فحوّلت نظراتها بعيداً لا تكاد تنتبه إليه وهو يعود إلى ذلك الرجل المسن يتحدث إليه. كانت مضطربة، وكل هذا نتيجة لحظة حمقاء، خيّل إليها فيها أنها لمحت في عيني دويل شيئاً يشبه الإعجاب والبهجة العميقة. لا بد أنها كانت

تصورات منها بالطبع، فهو لا يجد فيها ما يستحق الإعجاب سوى القليل جداً.

مضى وقت لا بأس به قبل أن يعود إذ من الواضح أن معرفته باللغة لا تتعدى الضروريات، أما الحديث عن نوع مرض الصبي باستعمال الاشارات والكلمات القليلة، فقد كان صعباً للغاية. على كل حال، عندما جلس بجانب غابرييل، كان وجهه من العبوس بحيث جعل قلبها يغوص خوفاً.

سألته بهدوء: «هل عرفت طبيعة مرضه؟»

«إنه تخمين فقط، ولكنني أظنه يعاني من التهاب في الحلق وحسب تقديري، فهو ممتنع عن الأكل والشرب منذ أيام قليلة، وذلك نتيجة الورم والألم في حلقه.»

«التهاب في الحلق فقط؟ ولكنه يبدو مريضاً جداً يا دويل.»

فأجاب برقة: «إن الأمراض الخفيفة بالنسبة إلينا، تقتل معظم هؤلاء الناس أكثر من أيّ شيء آخر. فهم لا يملكون مناعة نحو اصابات الرشح العادية والحصبة، والشلل... وكل هذه الأمراض نتخلص منها بمساعدة بعض أنواع الأدوية. لقد كان هذا الصبي قد ذهب مع أمه لزيارة قبيلة أخرى وربما كان التقط العدوى من هناك.» وسكت لحظة ثم أضاف: «إنهم يظنون أنه لن يكمل هذه الليلة حياً، يا غابي.»

فاتسعت عيناها ذعراً، وشحب وجهها وهي تنظر إلى الصبي بيأس: «لا بد أن نقوم بشيء. من المؤكد أن بإمكانك أن تقوم بشيء في هذا الصدد... ربما تساعد في

إعادته إلى القبيلة الأخرى حيث لا بد أن يكون هناك من يساعده.»

فهز رأسه وهو يحدق في الصبي الذي كان لا ينفك عن التململ والهلوسة: «إنه لن يتحمل الرحلة إلى هناك فهي تبعد مسافة عشرة أيام مشياً من هنا.» ونهض فجأة عائداً إلى حيث الحقيبة، فأخرج منها زجاجة صغيرة تحوي حبوب دواء عاد بها إلى غابرييل: «ربما هذه تحقق الهدف.»

فسألته وهي تأخذ منه الزجاجة: «ما هذه؟» وأشرق وجهها عندما قرأت على الزجاجة بينيسيلين: «أتظن أن هذه ستنفعه، يا دويل؟»

«ثمة حظ كبير في هذا إذا نحن جعلناه يبدأ بالأخذ منها بأسرع وقت ممكن.»

«ماذا ننتظر إذن؟»

«ليس الأمر بهذه السهولة يا غابي. علينا أولاً أن نقنع أمه بفائدة هذا الدواء، وبعد ذلك تأتي مسألة إعطاء الحبوب للمريض. فلا يكفي أن نعطيه حبة منه وينتهي الأمر. فعدا عن أن العيار سيكون قوياً بالنسبة إليه، فهو لن يستطيع ابتلاعها. المفروض أن تسحق الحبة وتمزج بالماء ثم تعطى له كل ثلاث ساعات.»

«لا أرى في ذلك أية مشكلة.»

رفع حاجبه قائلاً: «كلا؟ قد يأخذ هذا يومين، يا غابي كي نستطيع التأكد من أن الصبي يتناول الدواء بانتظام. وهذا معناه أن الطائرات التي تفتش عنا ستفوتنا، فهل أنت على استعداد للمغامرة بذلك لأجل صبي لا تعرفينه؟»

ولكن غابرييل لم تحاول حتى أن تتوقف لتفكر. وبدا على وجهها مقدار الألم الذي شعرت به لدى إلقائه هذا السؤال عليها.

«أعلم أنه سيصعب عليك تصديق هذا، يا دويل إذ أنني أعرف الفكرة التي تكونها عني. ولكنني لن أتخلى عن هذا الطفل مهما كان الأمر. فأنا لست بهذه الأنانية، كما أنني لست بالفتاة التي أفسدها التدليل كما تظن.»

وامتلأت عيناها دموعاً بشكل غير متوقع، فأشاحت بوجهها لكي لا يراها، ولكن يبدو أنها تأخرت في ذلك، لأنه لاحظ ما بدر منها.

«غابي، أنا...» وبدا هذا التردد غريباً من رجل اعتاد دوماً السيطرة على نفسه ووضعه أيضاً، فنظرت إليه بفضول وهي تسمعه يتمتم بصوت خشن: «يا ليتني لم أوافق قط على هذا الأمر.»

ثم تركها وهو يشيح بوجهه مبتعداً عنها ولكن غابرييل أدركت للتوّ أن هذا لم يكن موجهاً لها. فنظرت في أثره وقد تملكها الاضطراب وهي تحاول أن تعمل فكرها في ما جرى.

عادت تجلس بجانب الصبي شاعرة بالسرور لتقبّل أمه لحضورها الآن كما فعلت بقية النسوة المجتمعات حولهما.

بدا وكأن الليل لا نهاية له. كان دويل وغابرييل يتبادلان السهر بجانب فراش الصبي، يعطيانه العلاج حبوباً مسحوقة وممزوجة بالماء. كان دويل قد اقترح عليها في البداية أن تنال شيئاً من النوم ولكنها رفضت. فلم تكن تستطيع

أن تتصور نفسها نائمة بينما الصبي بين الموت والحياة.

عندما بزغت الشمس، تركت الكوخ وسارت مجتازة الأرض الفسيحة، لتروّح عن نفسها من مكوثها طوال الليل بجانب الصبي. وكان دويل ما يزال هناك ينتظر ليعطي المريض البينيسيلين وليراقب طريقة تلقيه للعلاج، وذلك برقة بالغة جعلت غابرييل ترى منه ناحية جديدة عليها، بعيدة تماماً عن ذلك الشخص الفظ الذي عرفته. فيا له من رجل غريب غامض. فهو من ناحية بارد عنيد، ومن ناحية أخرى يُظهر حناناً لم يسبق لغابرييل أن رأته في كثير من الرجال، وربما لا يظهروه كيلا يفسّر الآخرْون ذلك بالضعف. ولكن من الواضح أن دويل لم يكن يقلقه ذلك إذ كان من الثقة بنفسه بحيث لم يكن يهمه رأي الآخرين به. لقد كان فريداً في نوعه بين الرجال.

رفعت وجهها إلى الشمس وهي تفكر في هذا كله، محاولة أن تستوعب كل الأشياء التي عرفتها عن دويل في الأيام القليلة الماضية. ويبدو أنه أصبح من الأهمية في حياتها بحيث أصبح يحتل أفكارها على الدوام تقريباً. واستدارت عائدة إلى الكوخ وقد تملكها الخوف من التفكير به أكثر من ذلك.

«أهذا أنت؟ هل أنت بخير.»

أوقفها سماع صوت دويل الهادىء، وذلك عند أسفل الدرجات المؤدية إلى الكوخ، رفعت نظراتها إليه حيث استقرت على ملامحه المتعبة.

أجابته بمثل لهجة سؤاله الرقيق: «إنني بخير. ولكن ماذا بالنسبة إليك؟ تبدو مرهقاً تماماً.»

فهبط الدرجات ليقف بجانبها ثم قال مبتسماً: «ربما قد كبرت على مثل هذه الأشياء. فقضاء الليل مستيقظاً له تأثيره.»

بادلته غابرييل الابتسام، ولكنها لم تصدقه تماماً. فقد كانت طاقة دويل على الاحتمال لا يضرها سهر ليلة واحدة، ليبدو بمثل هذا الإرهاق. ولكنها لم تعترض على كلامه هذا، وهكذا نظرت حولها إلى شيء آخر وقد كرهت أن تخترق هذه الهدنة التي يبدو أنهما اتفقا عليها حتى دون أن يتحدثا بشأنها، لقد عملا طوال الليل جنباً إلى جنب، يحاولان أن يجعلا الصبي مرتاحاً قدر إمكانهما، وذلك دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وهذا إنجاز رائع حقاً يستحق منها الفخر ولا تريد أن تفسده.

«كيف حال مريضنا؟ هل ثمة تغيير؟»

فدسّ يديه في جيبي بنطلونه وهو يهز كتفيه: «أظنه يبدو أقل تململاً مما كان. ولكنني لا أستطيع القول إنه في طريق الشفاء.»

«متى يمكننا أن نعلم ما إذا... ما إذا كان البنيسيلين يعطي فعالية؟» لم تستطع أن تفصح عن مخاوفها، فحوّلت نظراتها حين رأت دويل ينظر إليها. وعندما تقدّم بضع خطوات ليواجهها، حدقت فيه بعينين مغرورقتين بالدمع، فتنهد برقة.

«لقد بذلنا جهدنا يا غابي، وليس بإمكان أحد أن يفعل أكثر من هذا.» فسلختها هذه الكلمات الهادئة من أفكارها المؤلمة. ثم ابتسمت ابتسامة مرتجفة، خائفة من أن يرى ما تفكر فيه.

«أعلم ذلك، ولكن هذا لا يكفي أحياناً. أليس كذلك يا دويل؟ فهذا يمنح شعوراً بالعجز. أتمنى لو أن هناك شيئاً آخر أقوم به لأطمئن إلى أن الصبي سيشفى.»

ثم أخذ يحدّق بالأشجار التي تحيط بالأرض الواسعة. «لقد قمت الليلة الماضية بما لم يكن يتوقعه احد منك، فقد سهرت للعناية بصبي ليس له حق عليك بشيء.»

فشعرت بألم يعتصر قلبها، كان ألماً حاداً مراً جمّدها في مكانها.

«أتعني أنني قمت بأكثر مما كنت تتوقعه مني؟ أهكذا إذن، يا دويل؟» وأطلقت ضحكة خشنة وهي تغالب دموعها: «إن لديك فكرة رائعة عني، أليس كذلك؟ ولكن لو كنت نزيهاً حقاً لاعترفت بأن فكرتك هذه عني هي دون أساس، فأنت لا تعلم عني شيئاً أبداً.»

«كلا؟» وابتدأ غضبه يتصاعد بسرعة جعلتها تتراجع خطوة إلى الخلف. وعندما ضحك فجأة، شعرت بالخوف من السخرية التي بدت في ضحكته تلك: «إنني أعرف عنك أكثر مما تتصورين، يا غابي. أكثر كثيراً ولكن، حتى ولو لم أكن أعلم فما كان فهمك ليأخذ مني مدة طويلة لأنني قابلت أشخاصاً مثلك من قبل.»

آلمتها سخريته، ولكنها أيضاً أثارت غضبها: «آه، نعم؟ أخبرني أيضاً.» ورفعت حاجبها وهي تحدق فيه في تحدٍ واضح، ولكن لا شيء حتى الغضب، كان اقوى من الصدمة التي تلقتها لما سمعت.

«كنت متزوجاً من امرأة مثلك تماماً، يا غابي. إنكما في الواقع، متشابهتان إلى حد غريب.» وتنهد قبل ان يتابع: «آه،

إنكما غير متشابهتين في المظهر. نعم كانت ايلين امرأة جميلة، ولكنك رائعة الجمال، يا غابي كما تعرفين جيداً. ولكن خلفياتكما هي نفسها. فأنتما الاثنتان ولدتما في أسرة لا تحسب حساباً للمال، والحياة هي عبارة عن لهو وتسلية. وهكذا، عندما تتهمينني بعدم فهمك، فأنت مخطئة كثيراً. فأنا أفهمك جيداً جداً.»

واستدار عائداً إلى الكوخ حيث توارى داخله، تاركاً غابرييل تحدق خلفه مصعوقة. لقد كان دويل متزوجاً إذن. ولأمر ما، لم تكن قد سبق وفكرت في هذا الاحتمال، ما جعلها تصعق حين علمت به. جلست على الدرجة السفلى، مشبكة اليدين وهي تحدق في الأفق محاولة أن تتقبل ما سمعت ولكن هذا كان مستحيلاً مع هذا الألم الذي في داخلها.

كانت تستطيع أن تخمن ما جرى لزواج دويل. فقد تكلم عنه بصيغة الماضي ما جعلها تفترض أنه قد انتهى الآن، ولكن يبدو أن ذكراه ما زالت مرة. إنه يفسر الكثير... سلوكه نحوها، ورأيه السيء فيها. ولكن لم يكن من العدل أن يحكم عليها تبعاً لما قامت به امرأة أخرى.

لا يمكن إنكار أنهما انطلقا من بداية سيئة. ولو أمكنها استعادة شيء مما كانت قالته، لفعلت. ولكن من المؤكد أن بإمكانه أن يرى أنها ليست تلك المرأة الأنانية التي أفسدها الدلال، كما يظن. فقد غيرتها هذه الرحلة خلال الأدغال، وجعلتها لأول مرة منذ سنوات، ترى الأشياء في غاية الصفاء ما جعلتها تدرك كل تلك المشاعر الغامضة غير الواثقة بالنسبة لحياتها والاتجاه الذي تسير فيه. إنما أن

يصنفها من نفس نوع زوجته السابقة فقط لأن نشأتهما واحدة، فهذا ظلم. لكن كيف تقنعه بذلك؟ لماذا يبدو هذا بهذه الأهمية بالنسبة إليها؟

إن بإمكانها التعرف على رجل وقد يعاملها بمثل ما اعتادت عليه من معاملة ولكن، فجأة، علمت غابرييل أن هذا لا يعني لها شيئاً، إن كل ما تريده هو أن يقتنع رجل معينّ بأنه كان مخطئاً في تقييمه لها.

الفصل السادس

عند حلول الليل، ظهر تحسن مرموق في حالة الصبي، جلست غابرييل قرب فراشه، تنظر إلى أمه وهي تسقيه الماء، كانت حرارته قد انخفضت. ورفعت الأم بصرها إليها باسمة وعيناها تنطقان بكل ما يمنعها جهلها باللغة، من قوله.

أمسكت غابرييل بيدها تضغط عليها، وكأنها بذلك تعبر عن مدى سرورها لتحسن حالة الصبي. ثم نظرت حولها عندما سمعت صوت دويل يقف بجانبهما. التقت نظراتهما، ولكنها سرعان ما حولت عينيها إلى حبة البنسيلين التي كانت تسحقها. لقد تجنبا تبادل الكلام منذ ذلك الحديث الذي دار بينهما ذلك الصباح على درجات الكوخ، ولم تشأ غابرييل خرق الصمت هذا. كانت ترى أن على دويل ان يقوم هو بالخطوة الأولى لذلك. إذ كيف يجرؤ على ادانتها بجرم امرأة أخرى؟

«يبدو عليه التحسن. عدة ساعات أخرى ويتماثل في طريق الشفاء.»

أومأت غابرييل برأسها بحركة لا تكاد تلحظ، رافضة الإجابة فسمعت دويل يطلق همهمة خشنة وهو يمد يده يأخذ الإناء من يدها فيضعه جانباً. فحملقت فيه تعلمه بذلك برأيها في فظاظته هذه، ولكنها لم تشأ صبّ جام غضبها عليه فتزعج بذلك الصبي النائم فهمست بهدوء

بالغ إذ كانت تشعر بالأم تراقبهما: «كفى. أرجوك.»

فألقى دويل نظرة على المرأة، ودون تردد، توجه نحو الباب فيما تسير غابرييل خلفه. فتوهج وجه هذه وهي ترى النظرات تنصبّ عليهما. كانت عدة عائلات تعيش في نفس هذه الناحية وكان واضحاً أنهم كانوا يتطلعون إلى ما يجري، ولم يبدر عن دويل أية إشارة إلى أنه كان منتبهاً إلى تلك النظرات وهو يهبط درجات الكوخ مستمراً في سيره إلى الطرف الآخر من الأرض قبل أن يقول: «حسناً، أظن من الأفضل أن أسمع ما تقولين.»

«لا أدري ما الذي تتحدث عنه. إنما من تظن نفسك؟ لتعاملني بهذا الشكل؟» ألقت عليه غابرييل هذا السؤال بحدة ولكنها لم تعبأ بانتظار الجواب وهي تستدير لتعود من حيث أتيا، ولم تبتعد أكثر من خطوتين حتى قال لها: «دعينا ننهي كل هذه الألاعيب، أليس كذلك يا آنستي؟ أخبريني ما الذي يغضبك الآن؟»

«لا شيء. لا شيء يغضبني. لا شيء هنا لا يمكن اصلاحه حتى لو اختفيت عن وجه الأرض. فأنا لا شيء بالنسبة إليك، يا دويل. كما أنني على الأخص لست بديلة لزوجتك.»

تردّدت أصداء هذه الكلمات في الأرض الواسعة، فعضت غابرييل شفتها متمنية لو تستطيع استعادت الكلمات، ولكن الأوان قد فات لذلك، كان عليهما على كل حال، قضاء أيام كثيرة قبل ان يصلا إلى حيث ستصل إليهما قوة الانقاذ، ويكفي ما سيكون في ذلك من مشقة، تضيف حقداً على الكراهية التي تكنها له.

«لا تكوني سخيفة يا غابي، فليس ثمة من قال بأنك بديلة لها.»

«أنا؟ هل أنا السخيفة هنا؟ آه، يا لها من مهزلة... إنها حقاً مهزلة.» وتقدمت خطوة منه وهي تحملق في وجهه المتغطرس والغاضب: «أخبرني أنك تعرف من أشبه. احكم على سلوكي على أساس سلوك امرأة أخرى، ثم أخبرني بعد ذلك أنني سخيفة، هيا يا دويل. فأي متغطرس صلب الرأس مثلك لا بد أن يرى الخطأ في هذا.»

انزعج دويل من هذه الإهانة: «لو كنت مكانك يا غابي، لتوخيت الحرص في ما أقول.»

«لماذا؟ ما الذي تنوي أن تفعله بي؟ كيف ستعاقبني يا دويل؟ ثم هل أنا هي التي ستعاقبها أم زوجتك؟ أظن بامكاني أن أفهم السبب في تركها لك، لا بد أن الحياة مع رجل مثلك هي صعبة جداً.»

قذفته بهذه الكلمات التي أخرجها الغضب عن حدها، ولكنها لم تكن هي وحدها الغاضبة بهذا الشكل، كما يبدو. لأنه قال متوعداً: «إنك لا تتعلمين أبداً. أليس كذلك يا غابي؟»

«وما هو الذي عليّ أن أتعلمه؟ فقد سبق وأخذت عنك صورة جيدة جداً عما أنت عليه، يا سيد دويل.» وأطلقت ضحكة قصيرة خافتة ثم رأته يغضب أكثر من الأول، فانتظرت ما ستكون عليه ردة فعله.

«إنك لا تعرفين شيئاً عني، أيتها الآنسة. وإلا لما تصرفت بهذا الشكل.» واخذ يحدق في عينيها، وإذا به يبتسم فجأة فارتجفت وهي ترى التعبير ذاك: «أم ترينني بطيء

الفهم؟ ربما بالنسبة إلى خبرتك، تدركين ما تفعلين فتجرؤين على تعمد اغضابي، حسناً إنني أكره أن أرى كل جهدك هذا يذهب هباء، يا غابي.»

وإذا بالذهول يتملكها فجأة وهي تسمعه يئن بألم. فنظرت إلى وجهه الذي ابتدأ يشحب.

فقالت بجزع: «ماذا حدث، يا دويل؟» ولكنه تراجع مطلقاً صرخة ألم حادة أخذ بعدها يتنفس بصعوبة عدة مرات، وقد بدا أنه يحاول السيطرة على ما كان يشعر به من ألم.

تقدمت غابرييل إلى الأمام وقد انتابها مزيج من السخط والقلق، ولكنها عندما حاولت ان تمسك يده، سحب يده: «كلا، لا تلمسي ذراعي.»

فأمعنت النظر فيه مضطربة، وهي تحاول أن تعرف ما هناك، فنظرت إلى حيث كان يحيط ذراعه بيده يحميها، ثم قطبت جبينها بعد أن أدركت أنها نفس الذراع التي كان جرحها بالسكين منذ يومين، فسألته: «هل ذلك الجرح سيء؟ دعني اراه.»

فأجاب باقتضاب: «إنه يؤلم قليلاً.»

«هل أنت واثق من أن هذا كل شيء؟ اسمع يا دويل، إذا كان الجرح ملتهباً فاخبرني. فلا معنى لتمثيل دوْر الرجل القوي.»

فحدق فيها ببرود وقال: «ليس في الجرح أي التهاب، فلا تدعي نجاحك في التمريض يصيبك، إنك لست فلورنس نايتنغيل.»

تركها ومضى. فأخذت تحدق فيه مبتعداً، هذا ما يريها إياه دويل أكثر الأحيان... فهو يدير لها ظهره،

نابذاً إياها من ذهنه فيقطع الحديث معها في الوقت الغير مناسب.

تركا القرية الهندية عند شروق الشمس. وكان الصبي قد تحسن إلى درجة كبيرة. فهو يجلس بمفرده الآن ويشرب الماء دون عون من أحد. قدموا إليهما الكثير من الشكر فهمته غابرييل للتو رغم جهلها اللغة. أما دويل فقد ترك لهم حبوب البنيسيلين بعد أن أمضى وقتاً يعلم فيه أم الطفل، بالإشارات، كيف تتابع اعطاء العلاج لابنها، وذلك بمزيد من الصبر والمثابرة.

وكانت غابرييل تنظر إليه معجبة بصبره وهو يكرر ارشاداته عدة مرات، ومع هذا فقد كان قلبها مثقلاً. ذلك أن عدم صبره كان يبدو تجاهها فقط وليس تجاه الآخرين، وهذا يثبت نوع شعوره نحوها.

وعندما اقترحت مترددة، بأن عليهما أن يتوجها ناحية القرية الأخرى، لم تعجبه الفكرة فالرحلة إلى هناك تستغرق عشرة أيام، بينما عليهما أن يكونا في النقطة التي كانت حددت له عندما تكلم في الراديو، بعد أقل من يومين. ولم تناقش غابرييل منطقه هذا وهي تراه معقولاً. كلما كان انقاذهما سريعاً، كان ذلك أفضل. هذا شيء منطقي. ولكن المنطق لم يكن له تأثير على مشاعرها. فقد كانت الفكرة من أنه لم يعد لديها سوى يومين فقط لتقضيهما مع دويل ثم يفترقان بعد ذلك.

وسرعان ما عادا إلى الكفاح في شق طريق خلال الشجر ولكن، بعد ساعة أو نحوها، أدركت غابرييل أنه كان ثمة شيء مختلف هذا النهار. فقد بدا أنهما يتحركان بشكل أبطأ

كثيراً، وكان دويل بدأ يجد قطع النباتات مجهداً. فقد كانت حركاته تتوقف فجأة بشكل أخذ يزداد كلما تقدم النهار. وعندما توقف يستجمع أنفاسه، رأت مبلغ شحوب وجهه، هذا إلى بقعة حمراء على كل وجنة ما كان بمثابة تحذير لها، فسألته بتردد: «هل تشعر بسوء؟» ولكنه ألقى عليها نظرة عاد بعدها إلى قطع النباتات وهو يقول: «أنا بخير، والآن فلننتقل إلى مكان آخر.»

ففعلت ما طلب منها، ولكن تقدمهما كان بطيئاً لدرجة مؤلمة. فقد أخذ دويل يتوقف للراحة مراراً عديدة وصدره يعلو وينخفض للجهد الذي يبذله. لقد كانت عزيمته العنيدة فقط هي التي تسيّره الآن، كما أخذت غابرييل تفكر، ولو كان عاقلاً لاعترف بأنه يشعر بالمرض، ولكنه بقي يعمل ويعمل، إلى أن أخذ يترنح وقد شحب وجهه وزاغت عيناه. وعندما تقدمت غابرييل وأخذت السكين من يده، أبدى احتجاجاً ضعيفاً ما لبث بعده أن تهالك عى الأرض مسنداً رأسه إلى جذع شجرة، وقد أغمض عينيه وكأنه لم يعد قادراً على فتحهما. فنظرت إليه وقد تملكها الذعر.

«دويل، يجب أن تخبرني عما بك.»

بدا وكأنه يبذل مجهوداً كبيراً لكي يستطيع النظر إليها، وقد التوى فمه بابتسامة جافة وقال: «إنه العناد.» وعندما رأى عدم الفهم على وجهها رفع ذراعه، وسحب المنديل الملوّث الذي يغطي الجرح.

«لا بد أن الجرح قد تسمم. كان يجب أن أقوم بشيء نحوه من قبل عندما ابتدأت ذراعي تؤلمني، ولكن العناد

اللعين لم يسمح لي بالاعتراف بأنني أشعر بالألم.» ونظر إلى عينيها الذاهلتين، ثم حول نظراته وهو يتنهد بضعف: «أنا أستحق هذا، يا غابي. أظن هذا ما تفكرين فيه ومعك حق في ذلك.»

فحملقت غابرييل فيه، وهي تغطي الخوف الذي يتملكها باظهار الغضب. لقد تحوّل الجرح البسيط الذي أصابه منذ يومين إلى ورم أحمر ينز قيحاً، كما كانت معظم ذراعه قد بدت متورمة وعندما لمستها برفق شعرت بالحرارة الشديدة. كان واضحاً أن الجرح بحاجة إلى علاج، وبسرعة. ولكن كيف؟ لقد كانا في وسط الأدغال وبعيداً عن أية وسائل طبية: «هل تلومني؟ لقد كان من الحماقة والطيش أن تتجاهل مثل هذا الجرح؟»

«هل أنت خائفة من أنه سيكون عليك أن تمثلي دور الممرضة فلورنس نايتنغيل مرة أخرى، يا غابي؟» وكان في صوته العميق شيء من السخرية وكذلك في النظرة التي رمقها بها: «لا تقلقي، فأنا قوي كما سبق وقلت أنت أكثر من مرة وأنا واثق من أنني سأشفى من دون ارغامك على القيام بدور الممرضة لي.»

لقد آلمها أنه حتى في هذه الحالة، ما زال يسخر منها: «سنرى، ولكن أليس هناك مثل يتحدث عن سقوط الجبابرة؟ قريباً جداً سترى من مقدرتي في التمريض ما يسرّك.»

فوقف مترنحاً وهو يتمسك بجذع الشجرة، وقد بدا العنف على وجهه: «لا تظهري هذا الجزع، يا غابي كلما قلّ ما تقومين به لأجلي، يرضيني هذا أكثر. والآن فلنتابع العمل.»

«نتابع العمل؟ إذا كنت تتوقع أن تتقدم بعملك كثيراً، وأنت في حالتك هذه فأنت بالغ الطموح يا دويل. إنني أعطيك عشر دقائق، أو نصف ساعة على الأكثر، وبعد ذلك سيكون عليك أن تتوقف شئت أم أبيت.»

التقط سكينه، وهو يعود فينظر إليها قائلاً: «سنرى.»

نظر إلى البوصلة، ثم استدار يضرب النباتات، وحاولت غابرييل أن تدفعه إلى التعقل وأنه بدفع نفسه للعمل بهذا الشكل، لهو عمل جنوني. ولكنها كانت تعلم أن أيّ توسل منها سينتج عنده تأثيراً عكسياً. لقد صمم دويل على التصرف بطريقته الخاصة، دون عون أو تدخل من أحد وخصوصاً منها. كل ما بإمكانها أن تقوم به هو أن تسكت وترى ما يحدث، ولكنها لم تشعر بالارتياح إلى هذه الفكرة وهي تدرك أنها ربما وجدت نفسها معزولة هنا مع رجل مريض... رجل يفضل أن يتألم على أن يقبل أيّ عون منها!

وفي النهاية، وكانت قد مرّت ساعة تقريباً كان دويل ينهار. ولم تعرف غابرييل كيف استطاع أن يستمر طوال ذلك الوقت، ولكن عندما انهار فجأة على ركبتيه ثم سقط أمامها. كادت الصدمة أن تجعلها تنهار هي الأخرى. وهي ترى شحوب وجهه الهائل والبقعة الحمراء على كل من وجنتيه.

«دويل، دويل، هل تسمعني؟» كرّرت قولها لمرات عديدة، ولكن كان من المستحيل أن تجعله يستيقظ ما جعل الرعب يتملكها. أغمضت عينيها في محاولة لتمالك نفسها، ومقاومة هذا الرعب. فالوضع كان من السوء بحيث لا

يحتاج المزيد من تهالكها، إنما لو كانت تعلم فقط ما ينبغي أن تعمل.

وعندما تأوه دويل بصوت خافت اسرعت تقول: «دويل، هل تسمعني؟»

«أنا...» وأومأ برأسه، ثم ابتلع ريقه بصعوبة، ولكن صوته كان ما يزال خشناً متحشرجاً عندما تمكن أخيراً من الكلام: «إنه التسمم... من الجرح... إذا لم يعالج حالاً فسينتشر في الجسم.»

عاد إليها الرعب بعد ما نظرت إلى ذراعه المتورمة. لم تكن تعرف عن هذه الأشياء سوى القليل جداً ولكنه كافٍ لكي تدرك النتيجة الرهيبة لذلك: «ماذا تريدني أن أفعل؟»

حاول دويل أن يجلس، ليسند جسمه الكبير إلى جذع الشجرة بشكل مريح، ولكن حالته كانت سيئة وكانت تعلم أنه سيعود إلى الاغماء مرة أخرى في أي لحظة. فإذا كان بإمكانها مساعدته، فعليه أن يوضح لها بسرعة ما ينبغي عليها عمله: «هيا، يا دويل أخبرني بما عليّ أن أعمل.»

وفعلت اللهفة في صوتها فعلها فيه إذ حوّل انتباهه إليها مغتصباً ابتسامة جعلت قلبها يتلوى ألماً، كان في حال سيئة، ولكنه مع هذا كان يفكر في قلقها ويحاول تطمأنتها. واغرورقت عيناها بالدموع وحاولت مغالبة الرغبة في البكاء، والبكاء دون توقف.

«إنني لم أمت بعد، يا غابي. كما أنني لن أموت إذا استطعت تمالك نفسك. أنا أعلم أن مثل هذه الأمور شديدة

الازعاج لفتاة مدللة لم تخبر من الحياة سوى جانبها السهل. ولكن هذا ما يحدث أحياناً.»

فاخترقت لهجته الساخرة خوفها كالسكين، فرفعت رأسها غاضبة وحملقت فيه: «إنك وغد سافل...»

«آه، إنها لغة تلوّث لسان السيدة المهذبة. لقد صدمتني بهذا يا آنسة مارشال.» وبدت لمحة من الهزل على وجهه، فلم تعرف هي هل تبكي أم تضحك. فقد فعل ذلك متعمداً، بالطبع. كان يريد اغضابها لكي لا يفقدها الجزع السيطرة على أعصابها. يا له من ماكر.

«إنك لم تتلق نصف الصدمة التي كنت ستشعر بها لو أنني أخبرتك حقاً برأيي فيك. والآن من الأفضل أن تخبرني بما عليّ أن أقوم به قبل أن تعود إلى الإغماء مرة أخرى ويبقى كل شيء لتصوراتي. إن الشهادة المدرسية والشهادة الجامعية لا تعد الفتاة لوضع مثل هذا، هل تفهم؟»

«لا أظن ذلك يعني انه ميؤوس منك عند الحاجة، يا غابي.»

لم تكن كلماته هذه إذا اعتبرتها مديحاً لتستحق أكثر من واحد على عشرة، ولكن غابرييل شعرت ببهجة عميقة. فقد كانت اعتادت على تحقير دويل لها في كل مناسبة بحيث أن أي مديح منه لها الآن يأخذ قيمة أكبر بكثير من قيمته. فنظرت إليه بوجه مشرق: «سأحاول جهدي يا دويل. أخبرني فقط بما عليّ أن أقوم به.»

بدا عليه التردد لحظة، ثم قال بهدوء: «إن الجرح بحاجة

إلى أن يُشق ليخرج السم منه. وعليك أن تقومي بهذا يا غابي. فأنا أشك في قدرتي على القيام به.»

«أنا...» وأمسكت عن النطق بالرفض إذ أدركت أن لا خيار لها في ذلك. فدويل لا يمكنه القيام بذلك بنفسه كما سبق وقال. فسألته: «وماذا... ماذا سأفعل أولاً؟»

فبدا الرضى في عينيه وهو يقول: «يمكنك أن تقومي بذلك يا غابي. انا واثق من هذا.»

فضحكت بصوت مرتجف ثم قالت: «دعنا نأمل إذن في أن ثقتك المفاجئة في قدرتي ليست في غير محلها.»

«إنها ليست كذلك.» والتقط السكين يناولها إياها: «عليك أن تغسلي هذا جيداً، ثم تشعلي الموقد، وهذا ليس صعباً عليك فقد سبق ورأيتني أقوم بذلك، ثم تضعي نصل السكين في اللهب لكي يتم التأكد من قتل الجراثيم، وبعد ذلك...» وهز كتفيه ببساطة وكأن ما سيأتي بعد ذلك ليس أكثر من مجرد مضايقة بسيطة.

أمسكت غابرييل بالسكين برقة عدة ثوانٍ وكأنها تحاول أن تجد الشجاعة للقيام بما طلبه منها، لم تفعل شيئاً قط كهذا من قبل، ولهذا لم تكن واثقة من مقدرتها على ذلك الآن. ولكن خوفها ذاك سرعان ما تبدّد وهي ترى ما بدا على وجهه من تعب واجهاد وكيف أنه لا يكاد يحرك ذراعه دون أن يسبب له ذلك الألم البالغ. فإذا هي لم تنجز هذه العملية، فإن التسمم سينتشر في الجسم أما النتيجة فهي لا تستطيع التفكير فيها.

نهضت دون أن تنطق بكلمة، وبكل هدوء نفذت كل تعليماته حرفياً، آملة أن شيئاً من شجاعة دويل ستنتقل

إليها لكي تتمكن من تنفيذ ما سيأتي بعد ذلك. فقد كانت تعلم أنها ستكون بحاجة إلى تلك الشجاعة.

كان المطر يقطر من خلال الخيمة التي استطاعت غابرييل تشييدها. فأخرجت الكوب من الحقيبة ووضعته تحت السقف يتلقى قطرات الماء، ثم ألقت نظرة على دويل، وقد كانت قامت بذلك مئات المرات حتى الآن. كان قد أغمي عليه أثناء معالجتها للجرح، مستغرقاً بهدوء في نوم عميق ما جعلها تحسده على ذلك، لقد استطاعت بشكل ما تأدية مهمتها تلك والتي استنفدت كل ما تملكه من شجاعة. والآن، كل ما بقي بإمكانها عمله هو الدعاء بأن لا يكون التسمم قد انتشر في جسمه. فإذا كان ذلك قد حصل...

نبذت من ذهنها هذه الأفكار، محاولة اقناع نفسها بأن من العبث شغل تفكيرها بأشياء قد لا تحدث. لقد عاد إلى الوعي منذ دقائق، ولكنه عاد فاستغرق في النوم كما يبدو، ولم يكن أمامها إلا الرجاء بأن يفيده ذلك وان تساعده شجاعته على الشفاء. لقد اعتادت في الأيام القليلة الماضية على الاعتماد عليه بشكل مطلق ليس فقط في اخراجهما من مأزقهما الذي وقعا فيه، وإنما في الاحتفاظ بسلامة عقليهما أثناء ذلك. فلو أنها وجدت نفسها في هذا الوضع بمفردها، أو برفقة أحد من مجتمعها، لما بقيت حية حتى الآن.

«كلا، لا تفعل هذا... انتبه!»

فقفزت من مكانها حين أخذ دويل في الصراخ بصوت عالٍ وجسمه يتلوى على الأرض بجانبها. ولكنه بعد أن هدأ،

عاد إلى النوم من جديد. كان واضحاً أنه كان يعاني من ارتفاع في الحرارة ما جعل غابرييل تكاد تبكي فقد كفاها السهر على ذلك الصبي المريض، ولكنها عند ذاك، كانت هي ودويل معاً، بالإضافة إلى والدة الطفل وأقربائه. أما الآن فهي بمفردها وغير واثقة من إمكانها مواجهة ما قد سيحدث إذا ساءت حالة دويل.

تغلبت على مخاوفها ومن ثم أخذت تفكر بتعقل بما عليها أن تقوم به، وهي تتذكر بوضوح ما كانت والدة الطفل تقوم به من مسح وجهه بالماء. إنها ستجرب هذا. ستمسح وجه دويل بالماء ثم تدعو له بانخفاض الحرارة، حيث أنه لم يكن لديها ما تستطيع عمله لتوقيف الحرارة غير ذلك. فهو قد ترك كل حبوب البنيسيلين في تلك القرية.

مرّ الوقت بسرعة. وشعرت غابرييل بالألم في ذراعها لكثرة ما أخذت تمسح بالخرقة المبللة وجه دويل. وعند حلول الليل، كانت حركاتها قد أصبحت آلية. فكانت يداها تتحركان بسرعة، وكأنهما مبرمجتان على حركة لا تنتهي. وكان دويل يستيقظ جزئياً من نومه الثقيل الذي كان مستولياً عليه، ليعود فيستغرق في نومه ذاك ثانياً في الوقت الذي كان يستيقظ فيه أملها بتحقق رجائها في استجابة دعائها، ثم فجأة، أخذ يتمتم مرة أخرى.

تركت غابرييل الخرقة من يدها، لتقول له: «دويل هل تسمعني؟»

«برد. البرد شديد يا غابي.» فتدفقت دموع العجز من

عينيها. ماذا تفعل الآن دون وجود أغطية تدثره بها. ماذا عساها ان تفعل؟

بقي دويل يرتجف، وأسنانه تصطك بالرغم من حرارة الجوّ العالية. ولم يظهر أيّ تحسن. إنه بحاجة إلى التدفئة وما من شيء متوفر لديها الآن.

لقد كان دويل قوي الصحة، ورؤيتها له في مثل هذا العجز والضعف جعلها تشفق عليه فجأة بالرغم من كل شيء.

وتنهدت وهي تغمض عينيها طاردة بذلك الهواجس التي أخذت تدور في رأسها وهي ترى دويل بهذا الشكل. وعندما ابتدأ النوم يستولي عليها، أدركت انها بحاجة الى النوم في هذا الوقت العصيب.

وشدا طائر فوقهما، متخللاً نسيم الصباح حلواً صافياً جعل غابرييل تستيقظ بابتسامة على شفتيها.

«هممم... إني أتساءل عما إذا كانت هذه الابتسامة لي.»

كان صوت دويل المنخفض منسجماً مع هدوء الصباح.

«دويل، أنا...» لم تستطع أن تفكر في شيء تقوله.

«لا بأس يا غابي. لقد استيقظت وأنا اشعر بصحة جيدة وذلك بمساعدتك لي.» ونظر إلى ذراعه وأخذ يحركها بحذر: «لقد قمت بعمل حسن أمس، يا غابي. عمل حسن جداً. عشرة على عشرة.»

«شكراً. لقد كنت قلقة لأجلك البارحة. فقد كانت حرارتك مرتفعة قليلاً، وفجأة، أخذت تتمتم بأنك تشعر بالبرد.» وهزت كتفيها لتتابع بعدها: «لهذا السبب اضطررت

لاستخدام الخرقة المبللة على وجهك لفترة طويلة، ويبدو أن هذا أتى بالفائدة المنشودة.»

«لقد أفاد في الواقع. والآن أرى أن أشعل الموقد وأصنع شيئاً من الشاي. لا أدري عنك، ولكنني جائع كثيراً.»

www.elromancia.com

الفصل السابع

كان تقدمهما حسناً ذلك النهار. وكان تغلبه على مرض الليلة الفائتة راجعاً إلى القوة التي يتمتع بها. وقد أصرت غابرييل على فحص الجرح في كل فترة استراحة لهما، ولكن لم يكن هناك شك في أنه كان في طريق الشفاء الآن بعد أن خرج القيح منه. ربطته بشريط اقتطعته من طرف الخرقة، ولكن الشريط بقي نظيفاً من الدم والبقع رغم عمله الشاق في الضرب والقطع خلال الأشجار.

مر النهار على غرار الأيام السابقة. كانت غابرييل تعرف ما عليها عمله الآن وكأنها عاشت بهذا الشكل طوال حياتها. كيف ستكون عليه حياتها عندما تترك الأدغال في النهاية وتعود إلى عالمها المتحضر؟ كانت تفكر في هذا وهي تسير في أثر دويل، تستعيد ذكريات ما كانت تملأ به أيامها قبل ان تتعرف على دويل، ولكنها شعرت وكأنها تتفرج على فيلم سينمائي. فتلك الحياة التي لا تنتهي للمباهج والنزهات، دعوات الغداء، التسوق، والتزحلق على الثلوج، كل ذلك بدا لها بعيداً نائياً عن هذا الوجود. وسرها أن تدرك أنها غير متشوقة إلى استعادة حياتها تلك. فوجودها في الأدغال أرغمها على الاهتمام بنفسها، وكذلك رؤيتها لذلك الصبي وهو يكافح في سبيل الحياة، حتى تمريضها لدويل والعناية بجرحه

قد غيرها نهائياً ما لم يعد في امكانها أبداً الرجوع إلى ما كانت عليه. وهكذا عاهدت نفسها على أن تقوم في حياتها بعمل مجدٍ فلا تضيعها هدراً.

صادفا في طريقهما بقايا قرية هندية وذلك في الوقت الذي ابتدأ فيه المطر بالهطول. كان يبدو على دويل أنه عازم على الإسراع في التقدم قدر إمكانه وذلك لكي يعوض ما فاتهما في اليوم السابق كما أن غابرييل كانت من الإستغراق في أفكارها بحيث لم تلاحظ أنه لم يتوقف ليقيم خيمة.

والآن، وقد ابتدأت أولى قطرات المطر تتساقط، ركضت معه يجتازان ما بدا أنه حقل كان الهنود يزرعون فيه محاصليهم، ليصعدا، بعد ذلك، الدرجات إلى أحد الاكواخ، كان جانب من السقف منهاراً بينما المكان تتصاعد فيه روائح العفونة، ولكنه على الأقل، كان يمنحهما شيئاً من الحماية إزاء المطر المنهمر، على عكس حماية السقف الذي اعتادا صنعه من أوراق النبات حيث المطر كان ينهمر امامهما مشكلاً سواقي تنحدر نحو الأشجار.

انزلت غابرييل الحقيبة عن ظهرها ثم ذهبت لتقف عند الباب تتفرج على الأرض التي أخذت تتحول إلى مستنقعات موحلة، وعندما أقبل دويل، ألقت عليه نظرة ثم عادت إلى التفرج على ذلك المشهد، وهي تشعر بالرهبة من عوامل الطبيعة.

أشارت بيدها إلى الأرض الفسيحة حيث قُطعت الأشجار فيها قائلة: «لماذا يهجر الهنود بيوتهم بهذا الشكل؟ اعني

أن اصلاح الأرض وزرعها لا بد كلفتهم مجهوداً كبيراً، ومع هذا يهجرونها، هذا شيء غير معقول.»

اتكأ دويل على حافة الباب. «إن عليهم أن يتنقلوا في الأنحاء. فالأرض معطاء إذا لم يتعرض أحد للغابة، ذلك أن أوراق النباتات والحطب يتساقط على الأرض حيث تتحلل مع الوقت لتصبح سماداً لنباتات أخرى. ولكن عندما تسوى الأرض وتحول إلى أرض زراعية، تتوقف تلك الحلقة المفرغة. والهنود يدركون ذلك. وكما اخبرتك فهم يستصلحون قطعة صغيرة من الغابة، ثم يحرقون الأشجار ويستعملون رمادها في تمهيد الأرض، ولكن بعد سنتين على الأكثر، تفقد الأرض من عطائها. وهكذا يهجرون المكان ليكرروا نفس العملية في مكان آخر.»

«يبدو أنها حياة في غاية الشقاء. لماذا يقومون بذلك؟ لابد أن بإمكانهم الإنتقال إلى مناطق أخرى حيث الحياة بالنسبة إليهم ليست بهذه الصعوبة.»

فنظر دويل إليها وقد بان الغموض على وجهه: «ربما هذه هي الحياة التي يفضلونها، فهي التي يعرفونها ويفهمونها. إن البرازيل بلاد غنية بثرواتها الطبيعية ولكن أكثر سكانها من الفقراء. والأرض غالية الثمن. وقد تبدو هذه حياة فظيعة بالنسبة إليك، يا غابي، بالمقارنة إلى حياتك، ولكن الهنود يتدبرون أمرهم وهم يفخرون بذلك.»

«لماذا تحاول دوماً أن تجعلني أشعر بالذنب؟» ولمع الغضب في عينيها. «ليس الذنب ذنبي إذ ولدت ثرية، يا

دويل، وكذلك ليس الذنب ذنب الفقراء في أنهم ولدوا كذلك.»

ربما كلامك صحيح، لكن الطريقة التي تكيّفين بها حياتك وكيف تتصرفين بها هي التي تحولها إلى حماقة. إنك تبددين مواهبك، وهذا أمر يجب أن تشعري بالذنب تجاهه.»

لم يقل سوى ما كانت تفكر فيه طوال النهار، ولكن كان من الصعب على غابرييل أن تعترف بذلك. «أما أنت فلا شك أن حياتك كانت في منتهى النبل وخالية من كل عيب. هل هذا ما تريدني أن اعتقده؟»

«لا يهمني ما تعتقدنيه إذا شئت الحقيقة، فعندما يأتي الغد، كل ما بيننا سيصبح ذكرى لا أكثر. سنذهب كل في طريق منفصل وهذه ستكون النهاية.»

«أما أنت فلن تفكر بي ولو مرة بعد ذلك. أليس هذا صحيحاً؟»

«وما الذي تريدينه إذن؟» وكان في عينيه معنى غريب. «هيا، يا غابي. لماذا تدعين شيئاً ليس فيك؟»

«إنني لا أدعي، ربما تظن انك تعلم عني كل شيء ولكن ليس لديك فكرة حقيقية عن شعوري. إن رأيك بي قد تأثر بما حدث لزواجك.»

«ليس لزواجي شأن بك مطلقاً.» واستدار مبتعداً وقد بدا الغضب الشديد واضحاً عليه، ولكن إذا كان يفكر في أن بإمكانه أن يدير لها ظهره مرة أخرى، فهو مخطىء. فقد أسرعت غابرييل لتقف أمامه وتقول: «ما الذي حدث، يا دويل؟ أترى زوجتك أدركت في النهاية أنها لم

www.elromancia.com

تعد تستطيع الإستمرار في العيش مع هذا الرجل الصالح الذي هو أنت؟ هل تركتك؟ وهل جرح هذا كرامتك وزهوك بنفسك؟»

فبدا عليه الغضب، ولكن صوته كان هادئاً وهو يقول: «ما حدث ليس من شأنك.»

«أنا لا أوافقك على ما تقول. فإذا كنت سأدان بسبب تصرفات امرأة أخرى، فأظن أن هذا يهمني جداً.»

«لماذا يهمك رأيي بك؟»

«أنا...» ولم تستطع أن تجد جواباً معقولاً لهذا السؤال البسيط.

وعاد هو يقول: «من غير المحتمل أن نلتقي بعد أن نفترق، فماذا يهمك إذن فيما لو لم تكن فكرتي عنك جيدة؟»

كان صوت دويل قد انخفض إلى درجة الهمس فشعرت غابرييل ان هذا السؤال كان يبطن سؤالاً آخر اكثر منه أهمية، وإزعاجاً...

«أصبح الأمر سخيفاً، يا دويل. في الحقيقة أنا...»

«انك تتألمين اذا اخذت عنك فكرة سيئة يا غابي، أليس كذلك؟ لقد رأيت ذلك في وجهك رغم اجتهادك في إخفاء ذلك عني. ولكن ماذا تقولين لو أنني اخبرتك بأنني ربما قد غيرت رأيي؟ وإنني ربما أدركت أن فيك من الانسانية اكثر مما كنت أعتقد؟»

فقالت: «كنت أظن أن تصرفاتي لا تعجبك.»

«ربما ما حدث في الأيام القليلة الماضية قد غير رأيي، فأنا لم اكن اتصور أن المرأة التي قابلتها في المطار، قد

تسهر طوال الليل بجانب صبي مريض لا تعرفه، أو أن تنجح في علاج جرح في ذراعي.»

كذلك هي لم تكن تتصور نفسها تقوم بعمل كهذا ولكنها، كما سبق واعترفت لنفسها، قد تغيرت في الأيام القليلة الماضية. اصبحت واعية بشكل ما، ولكن هل سيصدقها دويل إذا هي اخبرته بذلك؟ وشعرت فجأة بالخوف... الخوف من أن تخبره بأنها تعلمت الكثير حتى انها لم تعد ترغب في العودة إلى حياتها الماضية، وانها نوت على استغلال مواهبها فلا تضيعها، كي لا يسخر منها كما فعل من قبل. فقالت تقلل من شأن ما عملت: «إن أي شخص آخر كان سيفعل نفس الشيء. فأنا لم أصبح امرأة مميزة بهذا العمل. وبعد لولا انك لم تتماثل إلى الشفاء، لوقعت أنا في موقف حرج تماماً.»

عادت إلى وجهه ملامح السخرية التي اعتادتها: «كان علي أن أدرك أن اهتمامك الأول إنما هو بنفسك على الدوام. واتصور أن تلاوتك لتلك الحكاية المؤثرة عن سهرك بجانب سرير الصبي المريض ستكون موضوعاً تعيشين عليه سنوات، فليس هناك الكثير من اصدقائك من يمكنه أن ينافسك في سرد موضوع افضل.»

لا تريد أن تظهر مرة أخرى، لدويل أنه سبب لها الألم. فالذنب في ذلك ذنبها حيث لم تخبره بالحقيقة، ولكن ربما من الأفضل عدم قول الحقيقة تلك، على أن تظهر نفسها اكثر ضعفاً. فقالت بهدوء: «يبدو أن معرفتك بي جيدة تماماً.»

«إنها جيدة إلى حد لا انخدع معها بما تقدمين عليه

من عمل، يا غابي.» وتحول عنها ثم جلس على الأرض، مغطياً عينيه بقبعته. فاستقرت نظراتها عليه لحظة، ثم عادت تستدير لتحدق إلى خارج الباب تراقب المطر المنهمر، وبدا وكأن كآبة المنظر هي مرآة تعكس كآبة قلبها.

• • •

كانت الأدغال تطبق عليها، واغصان الأشجار تمتد فتمسك بها بينما كانت هي تجاهد في سبيل النفاذ من هذا الجدار الأخضر المسجونة خلفه، أخذت غابرييل تشق طريقها خلال الأغصان المتشابكة، محاولة أن تبعدها عن عنها، ولكن في كل مرة كانت تفلح في تخليص جزء منها، كانت النباتات تلتف لتمسك بها.

أخذت تئن بصوت خافت، وتقاوم لتتمكن من النجاة، ولكن كان من المستحيل عليها التخلص من النباتات الملتفة حولها، والتي كانت تسحبها شيئاً فشيئاً إلى وسطها، إلى أن أصبح من العسير عليها التنفس. وعند النفس الأخير، اطلقت صرخة عالية...

«استيقظي... هيا يا غابي، إنك تحلمين. استيقظي.» وصرخ دويل بخشونة، ولكن كان من الصعب أن تستيقظ من رعب هذا الكابوس، فقد ملأ تفكيرها، وتكمش بها كتلك النباتات، فأطلقت صرخة خوف ممزقة مرة أخرى سرعان ما توقفت فجأة عندما صرخ دويل بأعلى صوته هذه المرة، ما جعلها تعود إلى الواقع وهي ترتجف.

«لقد... لقد ارعبتني.»

فقال بقسوة: «لقد اضطررت لذلك بعد أن لم تستيقظي.»

واغمضت عينيها لحظة قبل أن تعود فتفتحهما وتنظر إلى وجهه. كان قد أضاء المصباح اليدوي ووضعه على الأرض قربهما بحيث أصبحا، داخل دائرة النور في الأدغال. وقالت: «كان الأمر فظيعاً. لقد أمسكت بي النباتات وفي كل... كل مرة حاولت التخلص منها، كانت تعود فتسحبني لتمسك بي.»

فقال يخفف عنها: «لم يكن سوى حلم سيء، يا غابي، حاولي ألا تفكري فيه. انت بحاجة إلى شيء من النوم. فغداً هو آخر يوم من رحلتنا هذه.»

أخذ في الإبتعاد عنها، ولكنها اسرعت تقول له:

«ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك؟ ماذا سيحدث لو وجدنا أن التفتيش عنا قد توقف؟ ما الذي سنفعله حينذاك، يا دويل؟ أخبرني.» كان صوتها يتصاعد نحو الهستيريا، فعضت شفتها تمنع ذلك، لا تريد أن تجعل دويل يرى جزعها. كان السبب فقط هو ذلك الحلم، ذلك الشعور الهائل بالضعف الذي مازال مستقراً في نفسها.

«سنكون بخير، يا غابي. ثقي بي، لا يمكن لجدك أن يتخلى عنك بهذه السرعة.»

«ولكن ماذا لو أن فرقة التفتيش قد ابتعدت عن المكان أو أنه لم يلتقط أحد رسالتك التي بثتها بالراديو قبل أن نترك الطائرة؟ إننا، عندئذ، سنبقى في هذا المكان إلى وقت طويل.»

«ها قد ابتدأت الهستيريا معك. كفى يا غابي. فهذا لا يفيد.» وكان صوته صارماً دلها بكل وضوح على رأيه

في مخاوفها، ولكن تطمينه هذا لها لم يأت بفائدة. «يا لغبائي إذ تصيبني الهستيريا لمجرد الظن بأنني سأتوه في هذه الأدغال المخيفة مدة سنوات.» وجلست ثم أخذت تحملق فيه، محاولة أن تقهر خوفها بالغضب. «هيا، اعترف. فليس بإمكانك أن تكون واثقاً مئة بالمئة من أنهم سيعثرون علينا غداً، أو بعد غد، أو بعد سنة. هل بإمكانك ذلك؟»

فبدا عليه التردد، وقد ظهر على وجهه تعبير غريب. «لا أرى ثمة فائدة في القلق بشأن أمرٍ قد لا يحدث أبداً، والآن دعينا نحصل على شيء من النوم.»

وابتعد عنها عدة أمتار، وبقيت غابرييل جامدة في مكانها، مرغمة نفسها على التعود على هذه الحال، ولكن كان من الصعب التخلص من ذكرى ذلك الكابوس وما نتج عنه من شعور بالخوف من بقائها في هذه الأدغال. وكادت تصدر عنها شهقة صغيرة فوضعت يدها على فمها تصدها، يجب أن لا تبكي، يجب أن لا تتصرف كالأطفال فيضحك دويل منها كعادته.

انكمشت على نفسها، وهي تبذل قصارى جهدها لكي تتمالك نفسها، ولكن كان من الصعب عليها هذا بعد أن جردها ذلك الكابوس من كل مقاومة. فانطلقت الشهقة وقد بدت عالية في ذلك السكون الشامل، وسمعت تمتمة خافتة تصدر عن دويل. «ما الذي حدث الآن؟»

جعلتها خشونته هذه تشعر برغبة عنيفة في البكاء، بينما كان عليها أن تكبح شهيقها، وإذا بها تشعر بقلق شديد، عندما سمعته يقول. «اطمأني يا

غابي، سيكون كل شيء على ما يرام. سترين. كفى يا غابي. فهذا لا يفيدك بشيء ان بكاءك بهذا الشكل سيجعلك مريضة.»

«وماذا يهم؟ فهذا لا يهمك بشيء.» وكان صوتها مختنقاً بالبكاء، وقد ظهرت التعاسة في كل حرف نطقت به.

«بلى يهمني يا غابي. يهمني اكثر مما ينبغي لي، وهذه هي المشكلة.»

قالت بسخرية: «يا لها من طريقة مضحكة تعلمني فيها بمبلغ قلقك عليّ.»

• • •

اعتادت غابرييل على مثل هذه الحياة البدائية، كما اعتادت ان تستيقظ كل يوم لتكافح معه من جديد على قطع جدار النبات لشق طريق العودة.

اعتقدت غابرييل بأن تصرفات دويل ستتغيّر تجاهها ولو جزئياً، ولكن هذا لم يحدث، فقد بقيت طريقته الجافة في إعطاء إرشاداته كما كانت منذ البداية ولكنها، ولعدة مرات، كانت تفاجئه يراقبها وعلى وجهه تعبير يجعلها تتساءل في امره، كما كان يملأها بشعور غير مريح فتسارع إلى نبذه باعتباره مجرد تصورات، فلم يكن هناك ما تخاف منه، إذ ربما كان شعوره نحو ما جرى بينهما من حديث يماثل شعورها هي، ولكن عليهما أن يصمما على شيء ما بالنسبة لهذا الأمر. إنه لم يأت على ذكر لشعوره نحوها، ولكن ما اظهره من لطف منذ البارحة شيئاً كان يدل على أنه يكن لها الاحترام.

استغرقت غابرييل في أفكارها إلى درجة جعلتها تتخلف في عملها قليلاً. ولما أدركت ذلك أخذت تسرع في قطع النبات أكثر كي تجاريه في عمله. ولكنها عندما اقتربت منه، كان هو قد توقف، فاستدار لينظر إليها. نظرت إليه مستطلعة، لكنها وجدته يتراجع حالاً ليعود إلى عمله فيلقي أرضاً فرعاً ضخماً من النبات بضربة واحدة من السكين.

ضغطت غابرييل بيدها على شفتيها، غير قادرة على تفسير هذا الخوف الذي شعرت به فجأة. وتعثرت في سيرها خلفه، وإذا بها تقف ذاهلة وهي ترى نفسها واقفة إزاء أرض بالغة الإتساع. أخذت تحدق لحظة، دون أن تفهم شيئاً، في تلك الطائرة التي كانت جاثمة على الطرف الآخر من الأرض، لتستدير بعد ذلك إلى دويل تحملق فيه بعينين متسائلتين. «هل... هل تلك طائرتك؟»

«نعم.»

«ولكنني لا أفهم، لماذا عدنا إلى هنا؟» وتملك الخوف قلبها. «دويل.»

عند ذلك نظر إليها ووجهه لا ينطق بشيء. «لقد استأجرني جدك لكي آخذك إلى أعماق الأدغال.»

«ماذا؟» هزت رأسها وقد شحب وجهها. «كلا، لا اصدقك هل تريد أن تقول إن كل هذا كان نوعاً من... الخداع وأنه ما كان لنا أن نهبط هنا لأن الطائرة لم تكن معطلة؟»

«هذا صحيح. لقد كان المحرك في أحسن حال.»

«ولكن كيف..؟ أعني لماذا؟ ما الذي جعل جدي يقوم

بعمل كهذا؟» كان من الصعب عليها أن تصدق ما سمعت، من الصعب أن تفهم. هل كانت هذه الرحلة بأجمعها عبارة عن خطة موضوعة؟

«إن لديه مبرراته الخاصة، ولكنني واثق من أنه يفضل أن يخبرك عن كل ذلك بنفسه.» ونظر دويل إلى ساعته، دون أن تتغير ملامحه. كان يبدو في منتهى البرود وفجأة، شعرت غابرييل بالاضطراب، ربما كان جدها هو الذي وضع هذه الخطة مهما كان السبب الذي دعاه لذلك، ولكن دويل هو الذي نفذها من البداية إلى النهاية. «وماذا عن مبرراتك أنت، يا دويل؟ لماذا قبلت القيام به؟» وكان صوتها خافتاً إلى حد ظنت معه أنه لم يسمعها، ولكنه أجابها بصوت خالٍ من أي شعور: «لقد استأجرني للقيام بهذا العمل، ياغابي.»

«استأجرك؟» وأطلقت ضحكة عالية تجاوبت أصداؤها حول الأشجار مرات ومرات وكأن آلاف الأصوات أخذت تردد ضحكتها تلك، وربما هذا هو الواقع، فإن اكثر الناس سيضحكون لغفلتها هذه.

«هل دفع جدي أجراً لك لكي تقوم بكل هذا؟ ولكن إلى أي حد كان يتوقع أن تستمر هذه التمثيلية؟»

احتدّت نظراته. وظنت لحظة أنه سيتكلم، فاستعدت لما سيقول، ان كل كلمة قد تزيد من العذاب الذي في اعماقها. ولكنه، ودون أن ينطق بكلمة، تركها وسار متجهاً نحو الطائرة.

«ويح لك، يا دويل. إنني لن أصفح عنك قط لهذا العمل.» وتحول صوتها إلى شهقة باكية، ولكن لم يبدر عنه ما يشير

إلى أنه سمع ذلك... أم لعله لم يهتم؟ لقد انتهت مهمته. وقد أنهى تمثيل دوره، فلماذا يهتم بما بقيت عليه غابرييل من قلب محطم واحلام مشتتة؟

الفصل الثامن

كانت الأصوات تتصاعد إلى غرفتها من الغرفة في الطابق الأسفل. وكانت غابرييل تستمع إلى علوّ تلك الأصوات وانخفاضها دون أن تسمع شيئاً مما كان يقال. كان جدها في مكتبه يتحدث إلى دويل. ووجدت نفسها رغم أنها كرهت نفسها لهذا الضعف منها، تحاول جهدها لكي تميز نبرات صوت دويل العميقة في هذا الحديث.

تململت وهي تحاول أن لا تسمع تلك الأصوات، ولكن ذلك كان مستحيلاً. فقد بدت قلقة إلى وجود دويل وإلى صوته العميق الذي ألفت. ما الذي كان يتحدث عنه مع جدها؟ وإلى أيّ حد كان نجاح خطتهما؟

كان الألم يمزق قلبها، فنزلت عن السرير وسارت ببطء نحو النافذة تلقي بنظراتها نحو الحقول الخضراء. كان جدها بانتظارها عندما حطت الطائرة أمام المنزل الكبير القديم. وكانت غابرييل قد أمضت طيلة الرحلة محاولة أن تعرف السبب الذي دعا الرجل العجوز إلى القيام بهذا العمل الأحمق. ولكن من الغريب أنه عندما حانت لحظة إلقاء هذا السؤال عليه، لم تعد تشعر بأية رغبة في سماع الجواب، لم يعد ذلك يعني أية أهمية بالنسبة إليها. ربما كان لدى هنري مارشال مبرراته وهي واثقة من أنها أفضل دون شك، من مبررات دويل

www.elromancia.com

التي دعته إلى الاشتراك في هذه الخطة. إن السبب الرئيسي لدى دويل كان المال. فقد استؤجر ليأخذها إلى الأدغال وان يتأكد من حمايتها من كل أذى. أن تكون النقود القذرة التي اكتسبها كانت تستحق ما بذل فيها من جهد.

تعالى طرق خفيف على الباب، فاستدارت غابرييل بوجهها الشاحب، ولكن القادم لم يكن سوى الخادمة الصغيرة تبلغها بأن تذهب لرؤية جدها في مكتبه إذا كانت تشعر بالرغبة في ذلك.

انتظرت غابرييل إلى أن خرجت الخادمة، ثم سارت ببطء نحو خزانة ثيابها الكبيرة القائمة في جانب من غرفتها الجميلة. وكانت قد سبق واكتشفت أن حقائبها قد أحضرت إلى المنزل وعلقت ثيابها بكل عناية في الخزانة بانتظارها.

أخذت تمرّ بأصابعها بتكاسل على الملابس الغالية الثمن، تاركة الحرير والساتان والكشمير ينساب من بين أناملها، وشعرت بالدموع تملأ عينيها وهي تفكر في أنها على استعداد لأن تقايض كل هذا بملابس كاكية مكرنشة. ولكن كل ذلك قد انتهى الآن. تلك الأيام في الأدغال قد مرت وانقضت وعليها الآن أن تستمر في حياتها المعتادة والتي لا يبدو فيها ما يشجع أو يثير.

تناولت ثوباً ذا لون أزرق داكن فوضعته على السرير، ثم اختارت الحذاء المناسب، وكذلك قرطين ذهبيين. لم يكن لديها فكرة عما إذا كان دويل سيكون موجوداً، إنما إذا كان هناك فإن عليها أن تبدو غاية في الأناقة وضبط

النفس. ربما كان قلبها محطماً، ولكنها لن تسمح له بأن يدرك هذا. لقد كانت حمقاء مرة، ولن تكون كذلك مرة أخرى.

بعد ذلك بربع ساعة، كانت غابرييل تقف أمام مكتب جدها. كانت تحدث نفسها بشيء واحد وهو أن لا تدع دويل يدرك شعورها هذا وأن أعصابها على عتبة الانفجار للتفكير في قرب لقائهما. وعلى كل حال، عندما دخلت وجدت جدها بمفرده، واقفاً بجانب النافذة.

استدار ينظر إليها، وابتسم وهو يرى الأناقة الرائعة التي بدت عليها في ثوبها الأزرق: «حسناً، لا يبدو أن الأمر قد ألحق بك أيّ ضرر، يا عزيزتي حيث أنك قد أمضيت عدة أيام صعبة.»

ولم تجب غابرييل. فما حدث قد أحدث في نفسها جرحاً من العمق بحيث لم تكن تعتقد بأنه سيشفى، ولكن كرامتها حكمت عليها بأن لا تخبر أحداً بذلك، حتى ولا جدها الذي تكن له أعمق الحب والاحترام. وتقدمت تقف بجانب الرجل العجوز عند النافذة: «لماذا فعلت ذلك يا جدي؟»

فتنهد هنري مارشال: «لأنني كنت قلقاً بشأنك، يا غابرييل.»

«كنت قلقاً؟» واستدارت تحملق فيه دون أن تحاول إخفاء ألمها وعدم تصديقها: «هل تدبرت أمر انقطاعي في الأدغال لأنك قلق بشأني؟»

وقادها إلى أريكة جلدية كبيرة حيث جلس وهو يربت على مقعد بجانبه لكي تجلس: «أعلم أنك لا بد أن تكوني

غاضبة، يا صغيرتي. كل ما أريده هو أن تسمحي لي بأن أوضح الأمر. عند ذلك ربما تتفهمين قصدي الذي وإن كان يبدو لك جنوناً، إلا أنني أشعر أنه كان عملاً صائباً من جانبي.»

فترددت غابرييل، ثم جلست فجأة وقد بان العنف في عينيها: «لا أستطيع تصور شيء يمكن أن يقنعني بذلك.»

«إذن فكل ما أريده هو أن تستمعي إليّ. كنت طوال السنتين الماضيتين، يا غابرييل أزداد قلقاً بالنسبة إلى الحياة التي كنت تعيشينها. فقد كانت حياة سطحية للغاية بالنسبة إلى طاقاتك وإمكانياتك، كنت خائفاً من أننا إذا لم نقم بشيء في هذا الصدد، فإنك ستستمرين في هذا النوع من الحياة، متنقلة من ناد إلى آخر ولكنك لا تجدين حقاً الاستفادة المطلوبة في أيّ منها. هل أنا على صواب؟»

فأومأت غابرييل برأسها وقد أذهلتها هذه الدقة في تقييم جدها. وابتسم الرجل العجوز وهو يربت على يدها: «إنني أعرفك تماماً، يا غابرييل فأنت تشبهينني في أمور كثيرة. فلك عقل ممتاز وأنت بحاجة لاستعماله، لا أن تبدديه هباءً في حياة أصعب قرار فيها هو المفاضلة بين أزياء سان لورين وشانيل. وكنت أعلم أيضاً بما انك تشبهينني، ستكرهين تدخلي هذا.»

فارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة: «حسناً، إنك على الأقل، تعترف بأن الذنب في جزء من ذلك هو ذنبك.»

«آه، هذا صحيح، لقد قررت أن عليّ القيام بشيء ما في هذا الصدد، وكان هذا الأمر يشغل بالي منذ تقاعدت من الشركة، ولكنني لم أصل إلى فكرة صائبة إلا بعد أن اجتمعت بدويل.»

تجمدت في مكانها لدى سماعها اسم دويل، وأشاحت بوجهها لكي لا يرى جدها ما كانت تعلم أنه لا بد قد ارتسم في عينيها: «فهمت، إذن فقد كان كل هذا فكرته هو؟»

«جزئياً، لقد أخذنا نتحدث عنك ذات مساء فأخبرته بأنني أتمنى لو كان هناك مكان ما فآخذك إليه أبعدك بذلك عن كل شيء. مكان تجدين فيه فرصة تراجعين فيها نفسك وترين حياتك بأبعادها الصحيحة. ولكن أين؟ فقد صغر العالم خلال السنوات الماضية حتى لم يبق، تقريباً مكان لم يزره السائحون. عند ذلك أتى دويل على ذكر الغابات الممطرة. وحتى تلك قد تقلصت بفعل يد الانسان، ولكن هناك منطقة واسعة منها لم تمسّ. وبدا لي أنها من الأماكن القليلة الباقية التي يمكنك أن تكوني فيها بمفردك، تراجعين حياتك مما قد يريك أنك تهدرينها عبثاً.» وسكت وهو يتفرس فيها: «أنا لم أفكر إلا بما فيه مصلحتك. ربما كان سبيلي لذلك خاطئاً، لا أدري ولكنني قمت بذلك بنية طيبة تماماً.»

«آه، يا جدي.» واغرورقت عيناها بالدموع.

ومالت نحوه تقبله على وجنته، ثم قالت: «ها قد بدا الأمر مفهوماً تماماً الآن بعد توضيحك الأمر لي، إن الحق معك، طبعاً. فقد كانت حياتي تضيع هدراً. وقد ابتدأت أدرك هذا بنفسي، والآن...»

فقال على الفور: «الآن؟»

«الآن لا أظن أنني سأعود إلى ما كنت عليه من انغماس في تضييع ما أملك. يبدو أن وجودي في الأدغال قد جعلني أستجمع كل ذلك الشعور الغامض الذي كان يراودني في أن شيئاً في حياتي لا يسير كما يجب. لقد غيرني ذلك حقاً».

«هذا ما قاله دويل بالضبط.»

«هل قال ذلك؟» وقفزت تتمشى في إنحاء الغرفة، لتعود إليه مرة أخرى، «إذا شئت الحقيقة، فهو لم يظهر لي أنه يأخذ عني فكرة جيدة تماماً.»

«ربما يعود ذلك إلى ما كنت أخبرته عنك. على كل حال، أظنه قد أدرك الآن، كما أدركت أنا، أنك فتاة قوية في ما تعتقدينه حقاً، إنه في الحقيقة...» وسكت هنري مارشال عندما دقت الخادمة على الباب تخبره بأن ثمة رجلاً ينتظره في القاعة يريد التحدث إليه. فاستدار إلى غابرييل يقول باسماً: «لا بد انه المهندس من المنجم. ومن المفروض أن يكون قد أحضر لي الآن تقريراً عن التقدم الذي أحرزه في هذا الشأن.»

«إذن فأنت جاد في مشروعك الجديد هذا، يا جدي؟»

«طبعاً، يمكننا جميعاً أن نغيّر نمط حياتنا في أيّ وقت نشاء، يا عزيزتي.»

هل نحن كذلك حقاً؟ فكرت غابرييل بذلك وهي ترى الباب يغلق خلف جدها الذي ترك الغرفة، ثم سارت إلى منضدة عليها ابريق عصير، فسكبت لنفسها كوباً أخذت منه رشفة.

وملأها مزيج من الحزن والمرارة، استدارت لتخرج، ولكنها ما لبثت أن وقفت فجأة حين رأت الباب يفتح ويظهر منه دويل. هنا، والآن هي ودويل، وخداعه لها بهذه الطريقة القاسية الباردة.

«تبدين في حالة حسنة بالنسبة إلى مغامرتك تلك، يا غابي.»

استدارت خوفاً من أن يرى ملامح وجهها وقالت: «سأعتبر ما قلته مديحاً، رغم أنني لست واثقة تماماً من أنك تعني ذلك. فشكراً يا سيد دويل. يمكنني أن أردّ لك هذا المديح، في الواقع لأنك أنت أيضاً تبدو في حالة حسنة بالنسبة لمكوثنا في الأدغال.» وتملكها الألم ثم تابعت: «ولكنك أيضاً قد حصلت على مكافأة مني، أليس كذلك؟ فقد كنت تعرف طوال الوقت أن مغامرتنا الصغيرة ستكون لها نهاية سعيدة.»

فتقدم نحوها ثم وقف على بعد أقدام منها، وهو يقول: «نعم، ولكن ذلك لم يجعلها أقل مشقة، يا غابي.»

ساورها شعور بأنه لم يكن يتكلم عن طبيعة الرحلة الشاقة، فلمعت عيناها غضباً: «إذن، فأنا أقترح عليك أن تبدأ بتدريب نفسك بالنسبة للمرة القادمة وذلك لتقوية نسبة المقاومة عندك، قليلاً فأنا أكره التفكير في أيّ فتاة صغيرة غنية مسكينة كتب عليها أن تعاني ما سبق وعانيته أنا.»

فقال ببرودة اعصاب: «وما معنى هذا الكلام، يا غابي؟»

«يمكنك أن تفسره كما تشاء. والآن، دعني أذهب. أظنك

حصلت على نقودك الآن يا دويل وليس ثمة مكافآت اخرى بعد الآن.»

فأجابها بحدة: «إنك لا تتعلمين أبداً، أليس كذلك؟ فأنت لا تكفّين عن التهجم وعن تجاوز الحد.»

«آه، إنك مخطىء في هذا. أظنك لا تقدرني كما يجب. فأنا أتعلم دوماً من أخطائي فلا أكررها بتاتاً.»

«وهل ما كان من حديث البارحة خطأ؟»

«طبعاً. ما كنت لأفكر بأمر كهذا في الظروف الطبيعية ولكن الذي كنا نعاني منه لم يكن عادياً، بالنسبة إليّ أنا على الأقل!»

«وهكذا حدث الخطأ ذاك نتيجة ظروف، هل هذا ما قلته؟»

أرغمت نفسها على القول بثبات: «طبعاً، وإلا ما هو السبب إذن؟» وأطلقت ضحكة صغيرة مزيفة: «لا أظنك تتصور انني مجنونة بحبك، يا دويل.»

فأطلق ضحكة تماثل ضحكتها، ولكن لم يكن في نظرته العنيفة سوى البرودة وهو يقول: «كلا، لا أتصور ذلك لحظة واحدة، يا غابي. وعلى كل حال لا أدري إذا كان حديث البارحة مجرد نتيجة للظروف وكذلك ما تتابع من حديث هذا الصباح.»

شعرت بالألم والذعر معا: «ليس لديّ فكرة عما تتحدث عنه، فأنت في منتهى المهارة في التحدث بالألغاز. شكراً يا دويل. فأنت تستحق حقاً كل قرش من أجرتك التي قبضتها، أليس كذلك؟ فأنت لم تقم فقط بدور المرشد والمحامي، او المعلم بالنسبة إلى البيئة، بل إنك تظهر خبرة بعلم النفس.»

أدارت ظهرها إلى وجهه الساخر، حاملة نفسها على البقاء هادئة. كان كثيراً عليها سماع ولو كلمة واحدة تدل على عدم الاهتمام، كما أن ذلك العقل البارد الحاد الذي له، سيبدأ بالتفتيش عن تفسيرات أخرى، وهذا ما كانت لا تريده أن يحدث... أبداً. لقد كانت مغفلة إذ تعلقت برجل لا يهتم بها، ولا تريد أن تكون أكثر غفلة بأن تدعه يعلم بشعورها نحوه.

سارت نحو النافذة تتظاهر بالتفرج على المناظر، مستغلة كل ثانية من ذلك لكي تستجمع قواها: «بصراحة يا دويل، أنا أفضل أن أنسى ماحدث، ولكنني أظن أن من الكثير التوقع منك أن تتصرف كسيد مهذب.»

ومرت لحظة ظنت فيها أنه سيتقدم نحوها ليضربها، وذلك للغضب الهائل الذي ظهر على ملامحه. ثم، دون أن ينطق بكلمة استدار خارجاً من الغرفة مغلقاً الباب خلفه بهدوء. وبدا لغابرييل وكأن باباً قد أغلق على حياتها.

كان مستحيلاً أن تتمكن من النوم على فراش ناعم. فقد اعتادت غابرييل خشونة أرض الغابة، والشعور باتساع الكون الذي كان يوفره لها نومها في الطبيعة. وبقيت تتقلب بضيق طوال الليل إلى أن فرغ صبرها عند طلوع الفجر.

أزاحت عنها الملاءات ثم تركت الغرفة بهدوء.

كان المنزل هادئاً في تلك الساعة الباكرة من الصباح، كما أن قدميها الحافيتين لم تحدثا صوتاً على الأرض الخشبية اللامعة وهي تسير خلال الغرف

الخالية. لقد كان أخبرها جدها أثناء العشاء، أنه عيّن عنده نصف دزينة من الخدم للعناية بالمنزل معترفاً ببساطة، بأن نصف هذا العدد هو كافٍ، ولكن لأنهم كانوا بحاجة ماسة للعمل، لم يطاوعه قلبه على طردهم عندما اشترى المنزل من مالكه السابق. والآن، كل أولئك الخدم كانوا نائمين في أسرّتهم بسلام ولم يكن سواها مستيقظاً في تلك الساعة.

كان في غرفة الجلوس الفسيحة أبواب فرنسية الطراز تقود إلى الشرفة أمام الباب ما يشكّل امتداداً للمنزل من الأمام. فتحت الباب ثم اندفعت خارجة. كان الهواء عذباً منعشاً وأقل رطوبة منه في الأدغال، فوقفت عدة دقائق أخذت تتنفس فيها بعمق، راجية أن يخفف ذلك مما تشعر به من ألم في داخلها. أغمضت عينيها تغالب دموعها. إن الدموع لن تفيدها بشيء، ولا أي شيء آخر. إنها تحب دويل، ولكنها ساخطة عليه. ذلك أن كل ما كانت تعنيه بالنسبة إليه هو أنها مجرد أداة... وسبيل لكسب المال.

كانت الحشائش مبتلة تحت قدميها وهي تنزل من الشرفة، ولكن غابرييل لم تنتبه لذلك أو للبلل الذي لحق بذيل قميص نومها الطويل، فقد كانت تركض على غير هدى في ذلك الفناء. لم تكن هاربة من شيء عدا ذلك الألم الذي كان يمزقها أشتاتاً، والذي لم تستطع الخلاص منه رغم كل جهودها. فقد أصبح جزءاً منها الآن، ولم تلبث أن انهارت أرضاً وهي تتأوه بحزن.

«غابي، ماذا حدث لك؟ هل أنت مريضة؟»

وبدا لها ذلك الصوت العميق حلماً أكثر منه حقيقة. بل لا بد أنه حلم وليس واقعاً، لأن دويل كان قد غادر المنزل الليلة الماضية قبل وقت العشاء بقليل. كانت غابرييل في غرفتها عندما سمعت هدير محرك سيارة. فشعرت بما يدفعها إلى النافذة في نفس الوقت الذي كان فيه دويل يقود سيارة الجيب مبتعداً نحو الطريق الرئيسي. كان يغادر دون أن يعبأ بتوديعها ما ضاعف من آلامها.

«غابي، ماذا حدث؟»

كان هذا الصوت يبدو حقيقياً بحيث استرعى انتباهها بشدة. ففتحت عينيها والذهول مرتسم في أعماقهما وشهقة صغيرة تصدر عنها: «لقد... لقد ظننت أنك مجرد تخيلات مني.»

فقال: «إنني لست حلماً، يا غابي. إنني أكثر حقيقة من أن أكون حلماً.» فأخذت غابرييل تنظر حولها ورأت قطرات الندى على الحشائش متألقة كماسات متناثرة.

«وكيف يغيّر هذا كل شيء؟» كان صوتها خافتاً ولكن دويل سمعه.

«لا يمكننا تغيير أي شيء، يا غابي. فأنت لن تتغيري. لقد أتى كل منا من بلد مختلف.» كان صوته فاتراً ولكنه كان يشتعل غضباً.

«ربما، ولكننا استطعنا أن نعيش بنجاح في نفس البلد، وذلك أثناء الأيام القليلة الماضية، رغم حقيقة كونك أكثر الرجال الذين شاء لي سوء حظي مقابلتهم، عناداً.»

«لقد عشنا في نفس البلد، حسب تعبيرك، لأننا كنا مرغمين على ذلك، لم يكن أمامنا خيار آخر.»

«هل تريد أن تقول إننا، بعودتنا إلى عالمينا المختلفين، أصبح لدينا خيارات متعددة؟»

«إن المحن تجمع في العالم أعجب الشركاء، يا غابي.» كان في صوته من السخرية بحيث ودت لو تضربه.

«هل هذا صحيح؟ كم هذا ممتع. هل هذه واحدة أخرى من نظرياتك، يا دويل؟ إذن فلم تكن هي الظروف الطيبة التي جمعتنا وإنما هي المحنة؟»

«لا تتجاوزي الحد في سخريتك هذه يا غابي وإلا قد تندمين.»

كان في صوته نوع من التحذير، ولكن غابرييل لم تعبأ بذلك: «لقد سبق وندمت على عدة أشياء قمت بها في الأيام الأخيرة، ولكن ازعاجي لك لم يكن من بينها. إذا شئت الحقيقة، إن ما يبعث في نفسي سروراً هائلاً هو أن أزحزح هذا القناع الحديدي الذي على وجهك ولو قليلاً.» ثم وقفت وهي ترمق دويل رافعة حاجبها بسخرية، متابعة: «لماذا عدت هذا الصباح؟ لقد ظننتك رحلت الليلة الماضية.»

بدا على ملامحه ما يشبه الارتياح وهو يجيبها قائلاً: «وهل من المعقول أن أرحل دون توديعك، يا غابي؟ كلا، لقد ذهبت فقط لإحضار بعض الأشياء التي أحتاجها قبل رحلة العودة.» عادت بها الأفكار فجأة إلى ما كان حدث في الأدغال: «ولكن ذلك أخذ مني وقتاً أكثر مما كنت أتوقع وقد عدت منذ مدة قصيرة فقط، وما أن نزلت من سيارة الجيب

حتى رأيتك تندفعين راكضة في هذه الأرض الواسعة وكأن احداً يلاحقك.»

فاحمر وجهها وهي تتذكر ركضها السريع ذاك، وسببه وأخذت تنظر بعيداً، وإذا بها تسمع دويل يضحك بصوت خافت: «مم كنت هاربة، يا غابي؟»

«لا شيء.» وقالت تهاجمه تحمي بذلك نفسها من فضوله: «على كل حال، هل أنت واثق من أن ليس هناك سبب آخر دفعك إلى العودة إلى المنزل، يا دويل؟ شيء أكثر أهمية بكثير من مجرد توديعي؟»

«يبدو أنك تظنين أن لدي سبب ما، فاذكريه.»

«المال، وعلى كل حال، فنحن لم نتفق بعد على المبلغ الذي عليّ أن أدفعه لك لضمان سكوتك لما جرى بيننا من حديث.» ثم أخذت تنظر إليه بحدة وتابعت: «إنني على استعداد لأكون كريمة معك، خصوصاً لسعة اضطلاعك في العيش في الادغال، ففكر إذن ودعني أعلم مقدار المبلغ بعد الافطار.» واستدارت لتعود إلى المنزل، ولكنها لم تتقدم سوى خطوتين حتى صرخ دويل بعنف.

كان وجهه محتقناً بالغضب، وهو يقول: «إنك تستحقين ضرب السياط لقولك هذا، أيتها الآنسة.»

فرفعت رأسها بغضب يماثل غضبه: «جرّب يا دويل، جربه فقط لترى ما قد يحدث.»

قذفته بهذا التحدي، وإذا بها تلمح على الفور تحوّل الغضب في ملامحه إلى شيء آخر جعلها تدرك من صميمها أنه السبب الحقيقي الذي جعلها تستفزه. وأخذ ينظر إليها ولكنها قابلت نظراته بكبرياء: «ما زال هناك خيط رفيع

يجمعنا، أليس كذلك يا غابي؟» وكان صوته مشحوناً بالمشاعر. وعندما طلب ان يرافقها إلى المنزل، وافقته على طلبه وهي تدرك انه سيعود إلى حياته وهي إلى حياتها، ولكن ستبقى معها هذه الذكرى الأخيرة على مدى السنين الطويلة الموحشة.

الفصل التاسع

«عليك أن تأخذي مزيداً من الراحة، يا عزيزتي.»

«سأفعل ذلك عندما تنتهي هذه الليلة.» واستدارت غابرييل باسمة إلى المرأة التي كانت تنظر إليها بقلق. «صدقيني يا أمي أن ليس هناك من سبب يدفعك لهذا القلق، إنني أشعر بصحتي جيدة تماماً و...»

فقاطعتها الأم بلهجة جافة: «ولكنني اراك شاحبة. أنا أعلم أن الفتيات في سنك لا يعجبهن أن يعاملهن أحد وكأنهن مريضات عاجزات لا لشيء، فقط لأن امهاتهن يقلقن عليهن، لقد كنت مررت بنفس ظرفك هذا عندما كنت في سنك، يا حبيبتي، ورغم أن ذلك كان منذ سنين، فأنا ما زلت أذكر شعوري حينذاك، إلى ان تعرفت على والدك، إنني لن أصفح أبداً عن جدك الذي كان السبب في تعرفك على هذا الرجل.»

فوضعت غابرييل القلم من يدها وهي تقول: «لا يمكنك أن تستمري في لوم جدي بهذا الشكل، فليس الذنب ذنبه اذا كنت انت دائمة القلق علي، يا أمي، كما أنا لست نادمة على ما كان، ولو أن هذا لم يكن خياري منذ البداية.»

«أعلم ذلك. أعلم ذلك.» وجلست فيرونيك على الأريكة انها امرأة في السادسة والأربعين، ونسخة مكبرة عن غابرييل، بنفس ملامح الوجه ولون الشعر. «كنت أتمنى لك فقط... حسناً، أن توافقينا على الإتصال بذلك الرجل.»

www.elromancia.com

فسألتها غابرييل بخشونة: «ولماذا. إنه لا يريدني، وقد أخبرتك بهذا. فلا تدفعيه أنت وجدي الى شيء لا يريده.»

فبانت خيبة الأمل على الأم. لقد تملكها الرعب عندما عرفت ما جرى لابنتها وكيف تاهت في الادغال بتدبير من جدها.

«إنني أعلم ذلك، يا حبيبتي. ولكنني أتساءل احياناً لماذا لا تدعيني وجدك نحاول فقط؟»

بدا الحزن، عندذاك، على وجه غابرييل وهي تنهض وتستدير حول المكتب. «ارجوك يا والدتي ان تنسي هذا الموضوع.»

«آه، يا حبيبتي غابرييل.» ووقفت فيرونيك وقد دمعت عيناها وهي تحتضن إبنتها بحرارة. «ياليت الأمور كانت معك بغير هذا الشكل. فأنت غاية في الشجاعة. وما حدث في البرازيل قد جعلك اكثر نضجاً، كما قمت بعمل شاق في الشهور الأخيرة، حيث تسلمت مسؤولية شركة مارشال للأعمال الخيرية. أعني، من كان يتصور أنه بإمكانك إقامة حفلة خيرية لهذه الليلة وتدبير ذلك في هذا الوقت القصير؟ إنني فخور بك جداً يا حبيبتي، وأنا أعلم أن جدك لديه مثل شعوري هذا.»

فقبلت غابرييل وجنة أمها، وابتسمت قائلة: «مضى وقت كنت أظن فيه أن ليس بإمكاني القيام بذلك، ولكن...» وهزت كتفيها وهي تعود إلى المكتب فتلتقط قائمة طويلة تفرست فيها بشكل آلي وكأنها تعودت على مثل هذا العمل من قبل. كانت حفلة الليلة هي ذروة عمل طويل شاق. اكثر من خمسمائة ضيف من المتوقع

حضورهم لهذه الحفلة الخيرية في أحد أجمل بيوت انكلترا التاريخية. العشاء سيرافقه موسيقى تعزفها فرقة تضم أشهر عازفي البلاد والذين وافقوا على التنازل عن أجرهم المعتاد بعد ان ألحت غابرييل عليهم كثيراً. كانت بطاقات الدعوة غالية الثمن ولكن الدعاية لهذه الحفلة كانت كبيرة وذلك بفضل عزيمتها على إنجاح هذه الحفلة، ما جعل الناس يتزاحمون على شراء التذاكر، وكل قرش من دخل هذه الحفلة كان سيذهب لمساعدة الأطفال المحتاجين في كل أنحاء العالم.

عادت تضع القائمة وهي تتنهد. «حسناً، لا أظن أنه بقي شيء عليّ القيام به الآن. وإذا كنت نسيت شيئاً آخر، فسيكون حقاً أمراً سيئاً.»

«إنني واثقة من أن كل شيء حسن تماماً. عديني، عندما ينتهي كل شيء، بأن تحاولي أن ترتاحي.»

«سأفعل ذلك، فلا تقلقي يا أماه.»

«ارجو ذلك يا ابنتي.» وربتت فيرونيك على خد ابنتها ثم غادرت الغرفة. كانت والدتها تساندها دائماً بشكل رائع وذلك في اية مشاكل قد تعترض طريقها، وكانت غابرييل تشعر ببالغ الشكر لها. ولكنها كانت تعلم أن قرارها في عدم الاتصال بدويل، يقلق أمها بقدر ما كان يقلق جدها. وعلى كل حال، فقد اضطر الإثنان إلى القبول بواقع أن التصرف في هذا الأمر هو من حق غابرييل فقط.

سارت نحو النافذة التي كانت تطل على ساحة مزدحمة في لندن، وعادت بها الذكريات إلى دويل، لم تكن قد رأته

منذ ذلك الصباح الذي عاد بها إلى المنزل. ولما اصبحت في غرفتها، وقفت عند النافذة تنظر إليه يستعد للرحيل، عالمة بأن هذه هي نهاية كل شيء بينهما. لقد فكرت، في ذلك الوقت بأن تقول شيئاً... بأن تصارحه بحبها وتطلب منه البقاء... ولكنها، في النهاية، لم تقل شيئاً لأنها لم تجد الكلمات المناسبة لذلك، لقد كانت تحبه كثيراً، ولكنه لم يكن يحبها، ولم يكن ثمة مهرب من هذا الواقع، وهكذا، بدلاً من ذلك، بقيت صامتة وهي تنظر إليه يخرج من حياتها نهائياً.

أتراه فكر فيها قط، أم أنه محاها من ذهنه؟ لم يكن لديها فكرة، ولكنها كانت أحياناً تظن أنها ستجن لكثرة تفكيرها فيه. كان من الممكن أن يملأ التفكير فيه وقتها اكثر لو لم تلق بنفسها في غمرة العمل الشاق الذي تسلمته في الشركة ولكن، أترى الحق مع أمها، وهي تعرض عليها فكرة الاتصال به؟

كانت غابرييل قد تحمست في البداية، لهذه الفكرة، وهي تتصور نفسها تقابل دويل مرة أخرى وتتحدث إليه، ولكنها ما لبثت أن أرغمت نفسها على مواجهة ما تعرفه، دويل لا يحبها.. فقد جعل ذلك واضحاً لها، ومن الأفضل لها أن تمضي بقية حياتها وحيدة على أن ترغمه على فعل شيء لا يريده قد ينتج في النهاية الكراهية لها.

* * *

نظرت غابرييل حولها لترى الضيوف، شاعرة برضى بالغ وهي ترى كل شيء يسير على مايرام.

بدأت الطبول تقرع بصوت خافت حين توجه قائد الفرقة إلى المايكروفون. «سيداتي سادتي، هل يمكنني الآن أن أقدم إليكم الآنسة غابرييل مارشال؟»

أخذت غابرييل نفساً عميقاً، ودويل لا يفارق افكارها، فقد كان الشخص الوحيد في العالم الذي كانت متشوقة إلى رؤيته، لكن هذا الشخص كان بعيداً عنها أميالاً.

صعدت الدرجات إلى حيث خشبة المنبر وهي تبعد عن ذهنها التفكير في دويل. ابتسمت للناس حولها الذين كانوا يصفقون لها بحماس بالغ، كانت تعرف كثيرين منهم، والبعض منهم كانوا غرباء، ولكنهم جميعاً قد ساهموا في جعل هذه الحفلة اكثر نجاحاً مما كانت تحلم به.

«إنني أريد فقط أن اشكركم جميعاً لقدومكم هذه الليلة. الغاية من هذه الحفلة، كما تعلمون، هي جمع المال، وأنا واثقة من أنكم جميعاً ستكونون مسرورين إذ تعلمون بأن مبلغاً في حدود خمسين ألف جنيه سيرسل قريباً إلى اعمالنا الخيرية. وهكذا، كل ما استطيع قوله هو، شكراً. إن الأموال ستستعمل لمساعدة الأولاد المحتاجين.»

وتصاعد التصفيق من جديد وكذلك بعض الهتافات. وابتسمت غابرييل وهي تنظر حولها، ولكنها ما لبثت أن شعرت بالشحوب يكسو وجهها عندما التقت عيناها بعينيه. ومرت لحظة بدت لها وكأنها على شفير الهاوية وهي تقف محدّقة في دويل، إلى أن عادت فجأة إلى وعيها، وتعثرت وهي تسارع في الهرب هابطة درجات المنبر، ولكن كان من المستحيل عليها الهرب في الوقت الذي كان هناك من يوقفها ليقدم إليها التهنئة وكان دويل واحد منهم، وقد قال:

«يبدو أنك قمت بإنجاز رائع وذلك في مدة قصيرة جداً يا غابي.» تحولت نظراتها إليه ثم عادت تتحول عنه مرة أخرى. كانت خائفة من أن يرى في عينيها مزيجاً من البهجة والخوف، أتراه قد علم حبها له؟ هل أخبره احد ما؟ كلا، ليس احد ما... هل تكون أمها أو جدها؟ وهل هذا هو سبب قدومه؟

ونظرت إليه مرة أخرى متمنية لو بإمكانها معرفة ذلك، ولكن بدلاً من التركيز على مبلغ ما يعرف، كان كل ما أخذت تفكر فيه هو نفسه.

«لماذا لا تنطقين، يا غابي؟ ليس من عادتك أن تكوني بمثل هذا الهدوء، انك طبعاً، لم تدهشي لرؤيتي حيث أنك أرسلت لي بطاقة خصيصاً لكي احضر.»

كان صوته العميق يحوي نبرة تهكمية أخذت تتسرب إلى ذهنها، شيئاً فشيئاً، خلال الفوضى والذهول الذي تملكها... «بطاقة؟ ماذا تعني؟ إنني لم أرسل إليك أية بطاقة، يا دويل.»

فأوماً يشدّ انتباه غابرييل إلى أن كونهما واقفين في منتصف القاعة بين الحاضرين، يجتذبان الإهتمام بهذه المناقشة.

مشت معه إلى القاعة الكبيرة للمنزل التي خلت من المدعوين عدا عن بعض الخدم.

«ما الذي تظن نفسك فاعله؟ في الواقع، يا دويل، من غير المعقول أن تأتي إلى هنا وترمي بثقلك بهذا الشكل، والآن، أرجوك أن تبتعد عن طريقي. فإن لدي ضيوفاً عليّ الإحتفاء بهم.»

ولكنه لم يفعل سوى أن استند إلى الباب خلفه مشبكاً ذراعيه على صدره بتكاسل. «إنني واثق من أن بإمكان ضيوفك أن يتدبروا أمرهم من دونك لمدة قصيرة، والآن ماذا تعنين بقولك انك لم ترسلي إليّ بطاقة للحفلة؟»

«أعني ذلك بالضبط. ليس لدي فكرة عمن فعل ذلك. ولكنه ليس أنا.»

«وهل تتوقعين مني أن اصدق ذلك؟»

«بصراحة، لا يهمني ما الذي تصدقه. ولماذا أريدك هنا؟ أخبرني.»

ابتعد ببطء خطوة عن الباب وهو يبتسم قليلاً إذ يراها تبتعد عنه بحركة لا إرادية. «ذلك لكي أرى بنفسي النجاح الذي حققته من وراء هذه المغامرة، وبالتالي أرغم على الإعتراف بأنني كنت مخطئاً بالنسبة لرأيي فيك.»

«إنني لست من الحماقة بحيث أتصور انه من الممكن أن تغير يوماً ما فكرتك عني، يا دويل.» وشعرت بطعنة ألم، فأشاحت بوجهها لكيلا يرى مقدار ما تشعر به من ألم وهي تتذكر نظرته إليها وإلى نمط حياتها.

«ربما عليّ تغيير فكرتي تلك. إذ، كما سبق وقلت لك، يبدو أنك قمت بإنجاز رائع في مدة قصيرة جداً، يا غابي. ولكن لماذا فعلت ذلك؟ كان بإمكانك أن تعودي إلى حياتك السابقة، حيث توجهين نفسك مرة أخرى إلى الأمور السخيفة، ولكنك فضلت تكريس طاقتك لشركة مارشال.»

«إنني...» وسكتت، متسائلة كيف بامكانها أن تجعله

يصدقها، وكيف شعرت بالحاجة إلى أن تتصرف بحياتها بطريقة إيجابية عندما عادت. «أظن السبب هو رؤية ذلك الصبي الذي قمنا بتمريضه، لقد جعلني أفكر كم هناك مثله من الأطفال في كافة أنحاء العالم ممن هم بحاجة إلى المساعدة، وعندما اقترح جدي أنني ربما أحب أن استلم إدارة الشركة بعد أن تقاعد، بدا لي أن هذه فرصة مناسبة تماماً للقيام بشيء ما.»

«إذن فقد كان هنري على حق، يا غابي، لقد قال إن كل ما تحتاجينه هو وقت تتأملين فيه حياتك، بعيداً عن كل ما يلهيك.»

«ولكنني واثقة من أنه لم يتوقع أن أجده في ذلك النوع الذي وجدته معك، يا دويل في الادغال.» ولكن بدلاً من الجواب اللاذع الذي توقعت أن تسمعه، إذا بصوت دويل يتضمن نبرة من الندم كانت سيئة بشكل بالغ وهو يقول: «لم يكن ذلك مخططاً له من قبل يا غابي. إنني اعرف أن قولي هذا لن يغير ما حدث، ولكنها الحقيقة. فأنا منذ ذلك الحين يكاد الشعور بالذنب يقتلني.»

كانت تحبه، بينما كل ما كان هو يشعر به هو الندم والشعور بالذنب. ونظرت إليه بعينين عنيفتين وقد احمرت وجنتاها غضباً. «لا تفكر كثيراً في هذا الأمر. فكل ذلك قد مر وانتهى الآن. إننا نتعلم دوماً الدروس من الحياة.»

أحقاً؟ هل حقاً التخلص من التفكير في هذا الأمر بهذه السهولة؟ ألم يترك أثره عليك، يا غابي؟»

«لقد كان شيئاً حدث ومر، يا دويل، لا أكثر ولا أقل.»

«إذن، فإن الآنسة مارشال المحنكة قد تمكنت من تقبل ما كان في الادغال، كزيارة إلى طبيب صحة أو طبيب أسنان، شيء قد مر وكأن الأمر كان وانتهيت منه الان.» وضحك بسخرية باردة وهو يتابع: «هل أصبحت تجدين الأمر دون عقبات الآن، يا غابي، لكي تحصلي على بعض التجارب؟»

«يالك من جريء.»

«لقد اقتربت من الحقيقة، أليس كذلك يا ماغي؟ أظن أن كل اصدقاءك سيشكروننني الآن بعد أن حللت عقدك النفسية المكبوتة.»

«ليس لديّ اصدقاء... يا دويل.»

«كلا؟ يصعب عليّ تصديق ذلك.»

«إذن، فعليك أن تحاول.»

«ما الذي تريدين قوله، يا غابي؟ إنك، منذ عودتك لم تقابلي أحد؟»

«كلا بالطبع.»

«فهمت.» كان في صوته شيء جعلها تنظر إليه متفحصة. ولكنها لم تستطع أن تعرف بالضبط ما هو. ربما شيء من عدم الاقتناع بما تقوله؟ ولكن هذه سخافة، فهو يسخر منها دون شك كما اعتاد أن يفعل دوماً.

لكنه سألها: «لِمَ لا، يا غابي؟»

«أنا... ليس هذا من شأنك.»

«آه، أنا لا أوافقك على قولك هذا، فهذا من شأني، فأنا مهتم جداً بشؤونك...»

«هذه... هذه سخافة، فأنت لا يهمك ما أقوم به. لقد سبق

واوضحت لي تماماً أنك لا تهتم أبداً بأي شيء يتعلق بي، يا دويل.»

«لقد طاوعتني بكثير من الامور الشاقة يا غابي، فأنا آسف، ولكن...»

إذن، فسبب هذا كله مجرد الشعور بالذنب... كل هذه الأسئلة وهذا الاهتمام غير المتوقع. وكان الألم الذي شعرت به حاداً سريعاً، ولكنه ليس اكثر حدة مما كان لازمها طوال الشهور الماضية. «ما الذي تريدني أن اقوله، يا دويل؟ انني لا يمكن أن اعجب برجل بعدك؟ وأظن أن هذا التفسير هو الأقرب إلى الحقيقة.»

«هل تريدين أن تقولي ياغابي انك لم تستمتعي بالرحلة في الادغال؟ هل هذا صحيح؟» كان في صوته من العنف ما يوحي بالخطر، ولكن الإستياء الذي كانت تشعر به غابرييل جعلها لاتلحظ ذلك. فقد طالما سبب لها الألم حتى انها أصبحت لا تريد سوى أن تؤلمه بالمقابل، وهكذا أجابته قائلة: «نعم.»

«إما أنك كاذبة تماماً، يا حلوة، وإما أن الزمن أضعف ذاكرتك. ولكن هناك وسيلة سهلة لمعرفة أيهما هي الحقيقة.»

«دويل، إنني...»

«لا تكذبي. لا فائدة من ذلك مادام بإمكاني معرفة الحقيقة بسهولة.»

سمعا وقع خطوات ورائهما. واستدارت ببطء تنظر إلى ذلك الذي قطع عليهما الحديث، لترى أمها وهي تحاول تمالك نفسها من الدهشة التي أصابتها وهي ترى ابنتها.

«أنا آسفة، يا عزيزتي. كنت فقط قلقة عليك، وإلا لما قطعت عليك الحديث لو كنت أعلم انك مع أحد.»

فابتسمت غابرييل وهي تتحول إلى أمها لتقدمه إليها. «لا بأس يا أماه. أريدك أن تتعرفي إلى دويل. إنك تتذكرين طبعاً ماكنت اخبرتك به عنه، إنه الرجل الذي كان جدي اتفق معه لتلك المهمة القصيرة الغريبة. دويل، هذه أمي فيروينك مارشال.»

حاولت أن تجعل صوتها هادئاً لايكشف الكثير عن القلق المفاجيء الذي شعرت به. أترى أمها تفهم ما تحاول هي أن تخبرها به بتلك الطريقة الباردة في تقديم الواحد منهما إلى الآخر؟ وحبست أنفاسها وهي ترى أمها تتقدم نحوه وتقول: «السيد دويل، إنني في غاية السرور، والراحة أيضاً، لمقابلتك أخيراً.» ثم نظرت إلى ابنتها بحنان. «لقد كنت في غاية القلق من هذا الأمر، ولكنني كنت اعلم انكما ما أن تحصل لكما فرصة للكلام، ستصطلح الأمور.» واطلقت ضحكة مرحة كانت هي الصوت الوحيد في ذلك الصمت الذي ملأ الغرفة، ثم تابعت قائلة: «واتصور أن هذا هو الموضوع الذي قطعته عليكما لتوي.»

تقدمت غابرييل إلى الأمام وهي تهتف: «أمي!» كانت تريد أن تسكت أمها قبل أن تقول شيئاً آخر. ولكن دويل كان أسرع منها، فقال: «أية أمور، يا سيدة مارشال؟»

«اموركما طبعاً فهي تحبك.» ونقلت المرأة نظراتها بينه وبين غابرييل وقد اتسعت عيناه وهي ترى شحوب وجه ابنتها. «آه،آه. اظنني قلت ما لا ينبغي لي قوله.»

«ماذا هناك يا غابي؟ ما الذي تحاول والدتك قوله؟»

لم تظن بإمكانها أن تتحمل ذلك، وأن تطيق البقاء هناك ناظرة إلى الإزدراء الذي في عينيه، فسارت نحو الباب بخطوات بطيئة مترنحة، ثم أخذت الغرفة تدور بها، وابتدأت تنهار وهي تطلق أنّة خافتة.

الفصل العاشر

كان الضوء يضايق عينيها. وإذ أشاحت غابرييل برأسها عن وهج المصباح، سمعت صوتاً خافتاً وكأن شخصاً قد أطفأه، فأبقت عينيها مغمضتين بشدة، آملة أن تهرب بهذه الطريقة، من الواقع مدة أطول.

«هيا، خذي جرعة من هذا. إنه سيفيدك.» تناولت من يده الكوب قائلة دون أن تشرب منه: «ما هذا؟»

«إنه مياه معدنية لا غير ففي وضعك الصحي هذا ليس من الحكمة اعطاؤك شراباً أقوى.»

ورفعت الكوب إلى شفتيها حيث أخذت جرعة صغيرة من المياه الباردة، ثم خفضته ثانية. «دويل، إنني...»

«كا ما تريدين قوله أنا عالم به يا غابي؟» كان صوته ينضح مرارة. «لماذا اخفيت الحقيقة عني؟ وهل أنت آسفة لأنني علمت بحبك لي؟»

«نعم، كلا... اعني، لست أدري.» واحتارت كيف تجعله يتفهم الأمر، ولكنها ادركت من ملامحه المتجهمة أن ذلك سيكون في حدود المستحيل.

«آه، بل اظنك تدرين، انك تدرين بالضبط. ما تشعرين به لأنك سبق وقررت كل شيء، أليس كذلك؟»

لم يكن ذلك سوى الحقيقة، ولكنها بدت، بالطريقة التي تلملم بها، أسوأ كثيراً. كان صوت دويل متردداً

بين الغضب والسخرية. وجذبت غابرييل نفساً عميقاً، ثم تنفست ببطء. «لم أشأ أن ادعك تعرف بذلك.»

«إلى متى ستستمرين بالمكابرة يا غابي؟»

«أنت.» وفجأة تملكها الغضب هي أيضاً، الغضب منه، الغضب من نفسها. «لقد خرجت من حياتي ذلك الصباح في البرازيل، يادويل، وتلك كانت النهاية... نهاية معرفتنا، فماذا كان علي ان افعل بعد ان اكتشفت مكيدتك أنت وجدي؟ أن أطوف أميركا الجنوبية بحثاً عنك؟ «لقد قلت بصراحة ان كل ما وجدته من رحلة الادغال هو المرح وأنا لست من الحماقة بحيث أظن أن شيئاً قد تغير فيك.»

«كلا؟ هل ظننت حقاً أنني سأختفي من حياتك؟»

«ما الذي تريده إذن، يادويل؟ أن نتزوج ونبدأ بتمثيل دور العائلة السعيدة؟ يا لها من سخافة.»

«إنني واثق من أن هذا هو رأيك يا غابي؟ إن لديك الوسائل للقيام بذلك بنفسك. وبالتالي ليس ثمة حاجة إليّ. ولكن، ولسوء حظك، سأبقى قريباً منك.»

لم يكن هذا ما قصدت إليه مطلقاً، ولكن ربما كان من الأفضل أن تدعه يعتقد ذلك، لو كان دويل يحبها، إذن لتزوجته غداً، ولكنه لا يحبها.

وعندما عادت تتكلم، كان صوتها بارداً متهكماً... يمثل شخصية غابرييل مارشال في قمة عنفوانها. «ألا تظن انك تهتم بالأمور اكثر من اللازم؟ لماذا تتخلى عن كل ما تقوم به، يا دويل؟ اعمالك وكل شيء في اميركا الجنوبية، فقط لكي تمثل دور الزوج النبيل الذي يتمتع بالأخلاق الحميدة؟»

قست نظراته ونضح صوته بالإحتقار وهو يقول: «أهذه نفس الطريقة التي تمثلين أنت فيها دور المحبة؟ آه، كلا ياغابي، لا تخدعي نفسك بالإعتقاد بأن هذا مجرد اهتمام عابر. لن تجدي بعد الآن أن من السهل التخلص مني، يا غابي، آه، ولا تقلقي نفسك كثيراً من جهة أعمالي، فإن هناك من يهتم بفرعها القائم في اميركا الجنوبية. ربما نسي جدك أن يذكر لك ان لدي مكاتب هنا في لندن كذلك. إنني لا أقارن مالياً، بهنري مارشال، ولكنني لست ذلك الفقير المعوز الذي ظننتني. لهذا لا تظني أن من السهل طردي من حياتك.»

واستدار متجهاً نحو الباب، ثم توقف لينظر خلفاً إلى حيث كانت جالسة، والتي ذهلت للغضب الذي سمعته في صوته وهو يقول: «سأعود ياغابي، فلا تفكري في الهرب، لأن ليس هناك مكان في العالم يمكنك أن تختفي فيه، فأنا ساعثر عليك أينما كنت.»

«أنا...» وسكتت حين رأته يخرج من الغرفة دون أن يعبأ بسماع ما كانت تهم بقوله.

• • •

مرت الأيام التي استحالت إلى اسابيع إلى أن مر شهر كامل، ومازال دويل يعامل غابرييل بازدراء بارد مما جرح قلبها. كان يتصل هاتفياً يومياً كما زارها في منزلها في لندن عدة مرات، فيمكث فقط ليسألها عن صحتها.

كانت غابرييل تتشوق إلى زياراته تلك وتتخوف منها ومن ذلك الحديث المتكلف الذي كان أثناءها يدور بينهما.

كانت تحبه، ولكنها في كل مرة كانت تشعر بخيبة أمل جديدة وألم جديد يضاف إلى الآلام السابقة. ولم يتغير موقفه إزاءها قط كما أنه لم يظهر أي شيء من الرقة. انه لا يحبها، وبالتالي لم يكن ثمة فائدة من تعريض نفسها إلى مزيد من الآلام.

وعندما جاء دويل ذات مساء، كانت غابرييل في غرفة الجلوس تتصفح مجلة. وكانت طيلة النهار تشعر بالقلق وحدة الطبع، وجاءها دويل، فرفعت نظرها لتجده واقفاً عند الباب وقد بدا بكامل اناقته، ألقت بالمجلة جانباً بابتسامة صغيرة، وفي عينيها بريق التحدي. «ما هذه الأناقة هذه الليلة؟ إنها ليست لأجلي بالطبع، يا دويل.»

تقدم نحوها قائلاً: «كلا، لا استطيع القول إنه لأجلك.»

لأجل من كل هذا إذن؟ وشعرت من هذا القول بطعنة ألم في صدرها: «إنني متأكدة من عدم ذلك، يبدو أنك في طريقك للسهرة في مكان ما، فأرجوك أن لا تتأخر لأجلي. يمكنك أن تخرج متابعاً طريقك، يادويل. لا تدع صديقتك تنتظر.»

فضحك برقة وقال: «كلا، الغيرة لا تبدو في عينيك.»

«لا تدع الغرور يدركك. فأنا لا اشعر بالغيرة عليك من... من...»

لماذا لم تستطع النطق بالكلمة تلك، بسهولة؟ أهو ذلك التفكير الذي جعل لسانها مربوطاً بهذا الشكل؟ ولم تجد وقتاً تصل فيه إلى قرار قبل أن يسارع دويل ليكمل لها الجملة بلهجة تعني الكثير. «الغيرة عليّ من شخص آخر؟ اتريدين أن تعرفي اسمها؟ فقط من باب العلم طبعاً.»

«كلا.» وأشاحت بوجهها بعنف، خائفة مما قد يرى في وجهها. لم تكن تريد أن تعرف اسم المرأة أو أي شيء عنها. «لا اشعر بأي اهتمام بمعارفك. والآن، إذا انتهيت من حديثك، فيمكنك أن تذهب.»

«واتركك شاعرة بالإستياء هكذا؟» وهز رأسه. «كلا، لا يمكنني أن افعل ذلك، يا غابي.»

قالت: «أنا بخير، وفي الواقع سأكون أحسن حالاً عندما تخرج من هنا، فلا حاجة بك للبقاء.»

«لماذا أنت مستاءة؟ ماذا جرى، يا غابي؟» كان صوته عميقاً. وبلغ بها التأثر إلى أن زاد تدفق دموعها، فمدت يدها إلى عينيها تمسحهما، فإذا به يمد لها منديلاً ناصعاً. «هاك، استعملي هذا.»

فهزت رأسها رافضة بعناد غاضب: «كلا، شكراً. لا أريده، لا أريد منك شيئاً أبداً.»

فتنهد دويل وهو يجلس على مقعد قائلاً: «كنت دوماً إمرأة عنيدة، ياغابي، ولم تتغيري.»

«لم أتغير؟ هه، اما آرائك أنت فقد نُقشت على ألواح من الحجر، يادويل.»

ثم بدا على وجه دويل تعبير لم تستطع تفسيره. ونهض فجأة ومشى نحو النافذة حيث أخذ ينظر إلى ذلك المساء الشتوي في الساحة التي كانت تضيئها مصابيح الشارع.

«هل كنت تتوقعين رؤيتي مرة أخرى يا غابي؟»

«لو كنت فعلت ذلك لما أمكنني الصفح عن نفسي قط.»

«فهمت. إنها إذن مسألة مبادىء.»

فأومأت برأسها. «نعم، يمكنك أن تعتبر الأمر كذلك.»

«ربما يمكنك أن تفهمي أنني أنا أيضاً لدي مبادىء.»

«لا أظن ثمة شيء بيننا بعد الان، يا دويل.»

«آه، بل هناك، وهو خيار بسيط جداً. تزوجيني يا غابي.»

تتزوجه؟ وأغمضت عينيها على هذا الفرح الذي بدا فيهما، إن الزواج من دويل هو كل ما تحلم به، ولكن التعقل مالبث أن عاد إليها. إن دويل لا يريد الزواج منها لأنه يحبها، بل لأنها هي تحبه... لكي يظهر بمظهر الرجل النبيل، وهذا لا يصلح لأن يكون أساساً لأي زواج. «كلا.» وكان صوتها أعلى من الهمس قليلاً، كما كان يتضمن نبرة من الألم والحزن، وعادت تنظر إلى دويل وقد تبددت تلك الآمال الرائعة القصيرة الأمد. «كلا، لن أتزوجك.»

«لكن لماذا يا غابي؟»

«لأننا نحن الإثنين نعلم انها فكرة جنونية.»

«وكيف تكون جنونية؟ خاصة فيها الخير لنا.»

«وكيف تعتبر هذا هو الخير وليس في كل منا شعور نحو الآخر.»

«انكري ذلك كما تشائين، يا غابي، ولكننا نحن الإثنين نعلم أن هذا صحيح، ومهما كانت آراء الواحد منا في الآخر.»

ثم أخذ يحدق في عينيها المذهولتين وهي تقول: «كفى يا دويل. إن هذا ليس حلاً لأي شيء، إنه جنون.»

فقال باسماً: «دوماً كان هذا نوعاً من الجنون. ذلك أن توافق اثنين لا يحدث إلا مرة في الحياة.»

جلبت كلماته الألم إلى نفسها. ذلك أن ما بينهما لا يعدو

في نظره سوى توافق... «هذا لا يكفي لتأسيس الزواج عليه، عليك أن تدرك ذلك.»

فهز رأسه وقال: «اظن هذا اكثر ما يؤسسه الكثيرون في زواجهم. ويضاف إلى ذلك، الأطفال.»

«على اية حال، ما حدث وكان في الادغال... كان تمثيلية.»

فأجابها بحدة: «هل هكذا تذكرين ذلك؟ يبدو أنك بحاجة إلى من يذكرك، يا غابي.»

«لا أريد من يذكرني، والآن ارحل...»

فقال باسماً: «ما بك يا غابي، هل اصابك الإشمئزاز من كلامي؟»

كان صوته ساخراً فحملقت فيه، تاركة الحذر جانباً. «نعم. لقد اصابني الإشمئزاز تماماً إذا شئت...»

ولكنه قاطعها قائلاً: «هل ثمة صعوبة حقاً في الزواج مني يا غابي؟ إننا سننشيء حياة جيدة.»

«كلا.» قالت ذلك وهي تجاهد في إخفاء ما تشعر به من عذاب. لو أن دويل نطق بكلمة حب واحدة، أو حتى أبدى شيئاً من الحنان، لاختلف الأمر، ولكنه لم يفعل. إنه يريد أن يتزوجها فقط ليظهر نبله واخلاقه امام والدتها وجدّها. «كلا، لا أريد أن أتزوجك. إن ذلك سيكون غلطة نندم عليها نحن الإثنان. والآن، أنا لا أرى أية فائدة في الإستمرار في هذا الحديث، إنه لا يعدو أن يكون إضاعة وقت.»

«كلا أبداً. بل بالعكس، فهذا الحديث فتح عيني على حقيقتك، يا غابي.»

«ما أشد جرأتك، اخرج من هنا.» ولكنه لم يتحرك.

«إنني ذاهب، ولكنني سأعود، وسأظل أتردد على المنزل إلى أن توافقي على الزواج، عند ذلك...» وهز كتفيه وبدا وجهه اكثر خشونة في ضوء الثريا المتوهج. وبدا لها فظاً عدائياً وهو يقف هناك يحدّق فيها ببرود بطريقة جرحتها في الصميم. كانت تكن له أعمق الحب، ولكن نظرة واحدة إلى التعبير الذي بدا على ملامحه هذه اللحظة جعلتها تعلم شعوره نحوها.

«عند ذلك ماذا...؟» ألقت عليه هذا السؤال بشجاعة بادية، فأجاب قائلاً: «عند ذلك أكون قد حققت هدفي.»

«ماذا؟» وحملقت فيه مذعورة. «ولكن هذا مستحيل وعلى أي أساس؟ اخبرني.»

«على اساس انك المرأة المناسبة لتكون زوجة لي.»

«انك مجنون. لأن الأمر سيكون مرفوضا من قبلي.»

«هل أنت واثقة من ذلك؟ على كل حال، فأنا لن اتوقف عن هذا الطلب الى ان توافقي مرغمة؟»

وسألته بانكسار: «هل تكرهني إلى هذا الحد، يادويل؟»

بدا الغموض على ملامحه حين أجاب: «كلا. انني لا أكرهك، يا غابي. إنني لا أشعر بأشياء كهذه نحوك، في الواقع. كما انني لست رجلاً متعسفاً ولهذا سأمنحك وقتاً تفكرين فيه، وذلك قبل أن تتخذي قرارك الأخير، تزوجيني فيكون في ذلك نهاية لكل هذه المضايقات.»

غادر المنزل، ولكن غابرييل بقيت مدة طويلة بعد ان سمعت الباب الأمامي يغلق، وهي جالسة مكانها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع. ربما عدم كراهية دويل لها لأنه لا يشعر نحوها بسوى الإزدراء، وهذا يبدو لها في

حالة رفضها الزواج منه، ولكن هذا القرار بدا لها الآن مستحيلاً اكثر من أي وقت آخر. كيف بإمكانها مواجهة المستقبل مع رجل هذا هو شعوره نحوها؟ لا بد أن هناك طريقة أخرى لتصريف هذا الأمر وجعل دويل ينظر إلى الأمور بتعقل، هذا إذا تمكنت من أن تجد وقتاً للتفكير في تلك الطريقة.

www.elromancia.com

الفصل الحادي عشر

«رسالة لك يا سيدة مارشال.»

فأخذت غابرييل الرسالة من موظفة الاستقبال وهي تبتسم لها شاكرة، ثم تابعت اجتياز الردهة ذات الأرض الرخامية، إلى حيث المصعد الذي يأخذها إلى منزلها. ضغطت الزر الذي تستدعيه به، وهي تلقي نظرة على المغلف ثم تنهدت وهي تميز فوقه خط يد أمها، فهو لا يكاد يستحق فتحه وقراءة الرسالة في داخله لأنها كانت تعلم سلفاً ما تحتويه. فقد كانت فيرونيك تكرر كتابة نفس الشيء في كل رسائلها... التوسل إلى غابرييل ان تعقل وتعود إلى لندن. ولكن المشكلة هي أنه ليس لدى أمها فكرة عن السبب الذي جعلها تلجأ إلى الاختفاء في هذا المنزل الذي استأجرته في باريس.

لم تكن قد أخبرت أمها بما كان يجري بينها وبين دويل من احاديث. كما انها لم تخبر أحداً.

وقف المصعد فدفعت غابرييل بابه المزخرف ودخلته صاعدة إلى الطابق الثالث. لقد كانت محظوظة إذ وجدت منزلاً في مثل هذا الوقت القصير. ولكن الأجرة كانت باهظة حيث أن المبنى قائم في شارع فيكتور هيغو. وكان هذا المنزل يعود إلى إحدى الممثلات التي كانت تنزل فيها إبان وجودها في باريس، وكانت بالغة الزخرفة من الداخل حسب الذوق المسرحي، إذ يدخل

فيها كثير من الذهب والرخام. على كل حال، كانت الغرف مريحة وإن لم تكن حسب ذوق غابرييل، وكذلك كان آمن تماماً، إذ لم يكن أحد يستطيع تجاوز مدام ماتيو عند مكتب الاستقبال.

دخلت غابرييل، لتسير على السجادة السميكة العاجية اللون وهي تتمتم بارتياح. فقد سارت شوطاً أطول مما كانت قررت، متجنبة الازدحام متخذة الشوارع الهادئة بمتاجرها الراقية. وكانت حركة البيع ناشطة نظراً لاقتراب موسم الأعياد، ودخلت في شارع فيكتور هيغو صالة لبيع المرطبات أمضت فيها فترة تناولت أثناءها حلوى لم تكن ترغب في الواقع فيها. كانت تريد فقط أن تؤخر لحظة وصولها إلى وحشة منزلها وذكرياتها التي تنتظرها. صحيح أنها هاربة من دويل، ولكن أفكارها كانت دوماً حافلة به.

أعدّت القهوة أثناء قراءتها للرسالة، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة جافة عندما اكتشفت أن رأيها كان صائباً بالنسبة لما جاء فيها، وضعتها جانباً ثم سكبت لنفسها فنجاناً من تلك القهوة حملته إلى غرفة الجلوس المزخرفة الرائعة الجمال، وهي تضيء الأنوار أثناء مرورها. فقد كان الظلام ابتدأ ينتشر، وخارج النوافذ المستطيلة كانت السماء تمتزج فيها الظلمة بحمرة الشفق، كما كانت عدة بقع من المطر تلطخ زجاج النوافذ تلك. كان هذا الوقت هو الذي تخافه أكثر من أي وقت آخر، وهو الذي يقع بين الليل والنهار، ويكون ذهنها فيه أكثر نشاطاً إذ يمتلىء بذكريات دويل.

جمدت لدى سماعها صوت الهاتف، فوضعت فنجان القهوة على منضدة صغيرة، ثم أسرعت لتجيب.

«مدام مارشال، هنا سيد يريد رؤيتك يقول إنه السيد مارشال. هل أسمح له بالصعود؟»

أهو جدها، هنا؟ وقطبت جبينها وهي تعطي الإذن بذلك ثم تسرع لتفتح الباب الأمامي. ولكن الرجل الذي خرج من المصعد لم يكن يشبه هنري مارشال. ومضت لحظة هلع وقفت فيها غابرييل تحدق في دويل، ولكنها أبطأت قليلاً في اغلاق الباب وبسهولة تثير الغيظ كان هو يدفعه فينفتح، وقال ساخراً: «عشرة على عشرة، يا غابي. لقد جعلتني أخسر كثيراً من نقودي لكي أعثر عليك.»

فنظرت إليه ببرود، وتذكرت ما كان حدث بينهما في آخر مرة التقيا فيها. والسبب الذي جعلها تهرب منه.

«إذا كنت تتوقع مني الاعتذار، فحظك سيء. فأنا لم أتكلف عناء ترك لندن لكي أراك تظهر فجأة على عتبة الباب بعد ذلك.»

فضاقت عيناه وتقدم نحوها ببطء: «لو كنت مكانك، لتوخيت الحذر في ما أقول، يا غابي. لقد وصلت لتوي من البرازيل وأنا بصراحة لست في مزاج يحتمل أياً من ملاحظاتك الذكية.»

«من البرازيل؟ إذن فقد شاهدت جدي. هل هو الذي أخبرك بمكاني؟» وبدا في صوتها خيبة الأمل لخداع جدها لها بهذا الشكل، ولكن دويل منحها ابتسامة باهتة.

«ليس بالضبط. لقد رأيت فقط رسالة كنت أنت سبق وأرسلتها إليه، وذلك على مكتبه عندما كان هو خارج الغرفة، فحصلت منها على العنوان.»

«أتعني أنك فتشت في أوراق جدي الخاصة؟ ثم بعد ذلك تطاوعك أعصابك على استعمال اسمه لكي تصعد إلى هنا؟ هذا عمل حقير حتى منك، يا دويل.»

«الحاجة تتطلب ذلك، يا غابي فأنا كنت أشك في أنك ستستقبلينني بالترحاب فيما لو أعطيت اسمي لتلك المرأة التي تقوم بالحراسة عند مكتب الاستقبال في الأسفل.» وتركها داخلاً إلى غرفة الجلوس وهو يتطلع حوله إلى الأثاث المزخرف، رافعاً حاجبه قليلاً: «هممم. يبدو انني كنت أضيع وقتي وأنا أشعر بالقلق عليك، يا غابي إذ لا يبدو أنك تعانين كثيراً من خشونة العيش وأنت تخفين نفسك عن الأعين.»

«هل كنت قلقاً لأجلي؟» وابتسمت بمرارة وهي تتبعه إلى الغرفة حيث التقطت فنجانها لكي تشغل يديها المرتجفتين بعمل ما قبل أن تفكر بشرب هذه القهوة الباردة: «حسناً، يمكنك أن تكف عن القلق، يا دويل. وكل شيء سائر على ما يرام.»

فأخذ يتمتم بغضب بصوت خافت: «هل تصورت حقاً أنني سأتركك تختفين يا غابي؟»

«كلا، كنت أعلم أنك ستقوم بكل ما في وسعك لكي تعثر عليّ.»

«لماذا هربت إذن؟» كانت عيناه تلتمعان غضباً: «لم أصدق ذلك عندما اتصلت هاتفياً، فأخبرتني أمك أنك رحلت.

فذهبت إلى منزلك على الفور، ولكنها أكدت أن ليس لديها فكرة عن مكانك.»

«لم تكن تعرف في ذلك الحين، لأنني أنا نفسي لم أكن أعلم أين سأسكن. كنت فقط ركبت الطائرة إلى باريس حيث وجدت مسكناً عند وصولي، ثم جعلتها تقسم أن لا تخبر أحداً بمكاني.»

«لا تخبر أحداً؟ هل تعنينني بذلك؟» وكانت ضحكته خشنة بشكل غريب. ومشحونة بالألم.

«نعم، إذا شئت الحقيقة. فماذا كنت تتوقع أن أفعل؟ أن أبقى هناك وأدعك تأتي إلي كل لحظة لتعرض علي الزواج، إنني لن أسمح لك بهذا أبداً. هل تسمعني؟ ليس لك حق عندي.»

«صحيح؟ لماذا؟ إنه امر غامض آخر يضاف إلى غيره.»

تمنت لو أنه لا ينظر إليها بهذا الشكل الذي يبدو معه وكأنه يحاول معرفة ما في أعماقها، ليقرأ أشياء لم تكن تريده فابتعدت عنه لتجلس على الأريكة وهي تسأله بهدوء: «لِمَ هذا كله، يا دويل؟ فأنت تلقي أسئلة تعرف جوابها مسبقاً. إن ذلك إضاعة للوقت.»

«إن محاولة أن يعرف الواحد منا الآخر، لا يبدو لي إضاعة للوقت. إنه شيء كان علينا أن نقوم به منذ وقت طويل.»

«متى؟» وأطلقت ضحكة عصبية: «لقد بقينا معاً في الأدغال عدة أيام فقط، وكنا غير مهتمين بمعرفة كل منا للآخر. إنك على كل حال، لم تحاول أن تكتم شعورك

نحوي. لقد علمت كل ما كان عليك أن تعلمه عني، أليس كذلك يا دويل؟»

«ظننت ذلك فعلاً. ولكنني، بشكل ما، أخذت أضيف كل الأشياء التي اكتشفتها عنك، وإذا بالصورة تتغير.»

«ماذا تتوقع مني أن أقول بهذا الشأن؟ إنك كنت مخطئاً في نظرتك إليّ؟» وهزت كتفيها وهي تتابع: «آسفة يا دويل ولكنني سبق وتخليت عن محاولة تغيير رأيك بي.»

فتجاهل تهكمها وهو يجلس على أحد تلك المقاعد الكبيرة، وقال: «ولهذا أظن أن علينا المحاولة التي يفهم كل منا الآخر. إنك لا تعلمين شيئاً مطلقاً عني، أليس كذلك يا غابي؟ ألا يهمك هذا؟»

ذلك يهمها بالطبع. فقد كانت متشوقة إلى معرفة المزيد عنه، تواقة إلى سماع تفاصيل حياته وكيف جعلت منه الرجل الذي هو الآن. ولكن الافصاح عن اهتمامها هذا سيجعلها تبدو ضعيفة أمامه. ثم قالت محاولة إظهار شيء من الملل في صوتها مخفية بذلك فضولها: «يبدو أنك تريد أن تخبرني عن ذلك، فخذ راحتك.»

فابتسم بطريقة أدركت معها أنه يفهم شعورها تماماً، ولكنه لم يعلق بشيء: «من أين ينبغي أن أبدأ؟ الأفضل أن يكون ذلك من البداية. ولدت من ابوين كبيرين في السن. وأظنهما كانا قد سبق وتخليا عن كل أمل في الانجاب. وأظنني بوصولي، قد تشوشت حياتهما المنظمة جيداً. ويكفي أننا لم نكن نتفق دوماً في وجهات النظر. وعندما توفيا لا يفصل بينهما أكثر من ستة أشهر، وكنت أنا في السابعة عشرة، لم يعصف ذلك بحياتي كما كان لا بد أن

يحدث لو أنني لم أكن قد سبق واعتدت الاعتماد على نفسي في ذلك الحين، والقيام بالأشياء حسب طريقتي الخاصة بحيث شكّل ذلك عبئاً كبيراً في بداية التحاقي بالجيش.»

فقالت بدهشة: «الجيش؟»

فأجاب: «نعم. لقد التحقت دون تفكير، إذ لم يكن من عادتي التفكير في ما أرغب القيام به. لقد انتهيت في قسم الأبحاث الخاصة برتبة مقدّم.»

لم تعرف غابرييل ماذا تقول. فلم يكن لديها سوى فكرة ضئيلة عن قسم الأبحاث الخاصة هذا، مما كانت تقرأه في الصحف ولكنها كانت تعلم أن وحدة قيادتها العليا ذات شهرة عالمية في أبحاثها فهي مختصة في كشف العمليات الارهابية ورجالها ذوو مهارة عالية وصلابة بالغة في الجيش الانكليزي. ولا بد من أن دويل، بوصوله إلى رتبة مقدم، هو واحد من أفضلهم. وهذا لا يدهشها. وذلك بالنظر إلى كيفية مواجهته للصعاب في الأدغال.

ويبدو أنها عبّرت عن أفكارها بصوت مسموع لأنها رأته يبتسم قائلاً: «نعم. إن التدريب في الأدغال هو اختصاصي. كما أننا تدربنا في مناطق التضاريس الطبيعية من المحيط القطبي الشمالي إلى الصحراء.»

فسألته بهدوء: «ولماذا تركت عملك ذاك؟»

فسكت لحظة وكأنه يتطلع إلى الكلمات المناسبة: «أظن المسألة ليست سوى الرغبة في التغيير. نوع آخر من التحدي لقد تركت الخدمة منذ سنتين وانشأت هذه الشركة

مستغلاً ما سبق وتعلمته أثناء وجودي في الجيش.» ولا بد أنه رأى حيرة غابرييل، لأنه استمر يقول: «أنا لا أدير شركة شحن فقط، وإنما معظم ما يتعلق بذلك من أعمال. وكذلك أنقل ركاباً... ركاباً قد يعانون من صعوبات في الوصول إلى المكان الذي يقصدونه، بأمان وذلك بطريقة المواصلات العادية.»

«يبدو أنه عمل خطر.»

«ليس في حالة التفهم للمغامرة وتوخي الحذر إذا كان ثمة مشكلات. فالرجال الذين أستخدمهم هم على درجة عالية من التدريب في هذه المهنة إلى حد لم يعد لديهم فرق بين أن تكون الحمولة عبارة عن ماسات بمبلغ مليون جنيه، أو بعض كبار الدبلوماسيين... فبإمكاني ضمان سلامة الحمولة. هذه هي السمعة التي بنيتها أثناء السنتين الأخيرتين، ويبدو أن الناس يدفعون جيداً لمثل هذا النوع من الخدمات. إنني سأفتح فروعاً في أميركا الشمالية، الشهر القادم. كما أنني تلقيت استفسارات من اليابان بالنسبة إلى فتح فرع هناك.» وحدّق فيها برزانة وهو يتابع قائلاً: «وهكذا أصبحت الآن معلوماتك عني أكثر قليلاً، يا غابرييل. حقائق قليلة عن الرجل الذي في نيته الزواج منك.»

ما الذي يريدها أن تقول؟ ان ما أخبرها به قد أدهشها؟ لقد حصل هذا فعلاً. فإن ما كانت تعرفه عن دويل كان قليلاً وها إنه الآن قد ملأ ثغرات عديدة، إنما بقيت ثغرات أخرى، وأكبر منها. زوجته مثلاً إنه لم يأت على ذكرها، وقد تاقت إلى أن تسأله ولكنها لم تجد

الشجاعة في الوقت الذي لم تفهم فيه تماماً لماذا يخبرها بكل هذا.

ابتسم وقال: «هذا مضحك، أليس كذلك يا ماغي؟ لقد ازدادت معرفتك بي قليلاً، وإذا بذلك يفتح مجالاً لكل أنواع الأسئلة.»

إذن، فقد تعمّد إغفال ذلك إذ يغيظها بهذا القدر من المعلومات. فتابع يقول:

«ولكن، وقبل ان اجيب على أية اسئلة، هل توافقين على طلبي وتتزوجين مني؟»

«كلا، هذا لا ينفع، إنك تعلم أن هذا لن ينفع.»

«إنني لا أعلم شيئاً كهذا. كل ما أراه هو عنادك المتعمد إزاء شيء منطقي. إنما أظنني فهمت الآن السبب، يا غابي.»

وسحبت نفساً عميقاً، وبدا الجوّ بينهما مشحوناً بالخطر: «ليس لديّ فكرة عما تعنيه.»

فضحك بصوت خافت وقال: «فكري في ذلك، يا غابي ثم اعطيني جوابك. وسأكون في الانتظار.» وابتعد وهو يخرج محفظته من جيبه، ثم يخرج منها بطاقة صغيرة وضعها على المنضدة بجانب الأريكة: «يمكنك أن تذهبي إليّ إلى هناك في أيّ وقت تريدين.»

«دويل، أنا...» لقد أوقفته وهي تراه يغادر، لتدرك بعدها أن ليس لديها ما تقوله. ليس هناك كلمة يمكن أن تخرج من كل هذه الفوضى الذهنية التي تتملكها. ولم يزد دويل وهو يرى سكوتها، على أن ابتسم ثم خرج من المنزل تاركاً غابرييل تحدق في أثره بعينين ذاهلتين. وعادت تغوص

في الأريكة مشبكة يديها المرتجفتين بينما تحاول اقناع نفسها بأنها كانت مخطئة، وأن ليس لدى دويل فكرة عن مقدار حبها له. ولكن في كل مرة كانت تتذكر فيها ما سبق وقاله لتوه، كانت هذه الفكرة عندها تقوى.

كانت تحبه، وكان هو يعلم ذلك. فهل هذا يجعل وضعهما أفضل أم أسوأ؟ وتمنت لو تعرف لأنها، عند ذاك ربما ستعرف كيف تتصرف.

• • •

كانت غابرييل تتناول القهوة في المطبخ، في الصباح التالي، عندما سمعت رنين الهاتف. وكانت قد أمضت معظم الليلة الماضية ساهرة تقلب في ذهنها كل ما حدث. ولكن كل ذلك الأرق لم يستطع أن يوجد حلاً لمشكلتها هذه، والآن أجفلت لصوت الهاتف هذا بحيث انسكبت القهوة من يدها على المنضدة الرخامية.

أمضت لحظة طويلة تحدق في القهوة القاتمة اللون لتسير بعد ذلك ببطء، نحو الهاتف شاعرة بقلبها يخفق مع كل خطوة تخطوها. لا بد أنه دويل بالطبع، يتصل بها في هذا الوقت من الصباح. ولكن، ما الذي ستقوله له؟ كيف بإمكانها أن تعترف بشعورها نحوه؟ وعلى كل حال، عندما استجمعت في النهاية شجاعتها للجواب، اكتشفت أن المتصل ليس دويل وإنما هنري مارشال جدها... هنري مارشال الحقيقي هذه المرة.

«غابرييل؟ هل أنت بخير، يا عزيزتي؟ لقد ابتدأت أشعر بالقلق عندما لم تجيبي على الفور.»

«أنا بأحسن حال، يا جدي. أنا... لقد انسكبت القهوة على المنضدة وكنت أمسحها قبل أن تسيل على الأرض.»

لقد اضطرت إلى الكذب.

«فهمت. اسمعي يا عزيزتي. هل جاء دويل لرؤيتك؟»

«نعم. كيف علمت أنه أتى لزيارتي؟»

«لأنه لا يكون الرجل الذي أعرفه إذا هو لم يجد على مكتبي الرسالة التي عليها عنوانك والتي كنت أنا وضعتها على مكتبي متعمداً لكي يراها.»

«جدي... أتعني أنك كنت تعلم أنه سيراها؟ ولكن لماذا...»

فقطع عليها احتجاجها المستغرب، وهو يتنهد قائلاً: «لماذا أردته أن يرى العنوان؟ لنفس السبب الذي جعلني أرسل إليه بطاقة الدعوة تلك إلى حفلتك التي أقمتها. إن على شخص ما أن يتصرف لكي يقرّب بينكما، أنتما الشخصين العنيدين.»

«آه، يا جدي.» ولم تعرف غابرييل هل تضحك أم تبكي.

«لا أريد منك أي اعتراض، أيتها الفتاة إنني لم أصادف من قبل شخصين مثلكما يخرّبان حياتيهما بهذا الشكل. وأنا أشعر بالمسؤولية تجاه هذا الأمر، فلو لم أجمعكما معاً لما احببته بهذا الشكل.»

فتنهدت غابرييل بحزن: «أنا غير نادمة على ذلك، يا جدي.»

فرقّ صوت الرجل العجوز: «أعلم ذلك، لقد أخبرني أنه طلب منك الزواج منه فرفضت.»

«أنا لن أتزوجه لأن الحب يجمع بيننا من طرف واحد، فزواج مثل هذا لن ينجح.»

«إنك تحبينه، أليس كذلك يا غابرييل؟»

«إنك تعلم أنني أحبه.»

«تزوجيه إذن لهذا السبب.»

«ولكنه لا يحبني.»

«وما يدريك؟ إن دويل ليس من نوع الرجال الذين يجهرون بمشاعرهم. فهو مما فهمته، قد عاش حياة خشنة صعبة. ربما يجد صعوبة في الاعتراف بمشاعره.»

هل هذا ممكن؟ وراودها الرجاء عدة ثوانٍ ولكنها ما البثت أن نبذت هذه الفكرة وقالت: «كلا، بل هو يكرهني.»

«حسناً إن لديّ وجهة نظر في ذلك، ولكن ليس لي الحق في أن أقوله. إن النصيحة الوحيدة التي أقدمها إليك، يا غابرييل هي أن الكبرياء تفسد الحياة أحياناً. فإذا كنت تحبين دويل فاستجمعي شجاعتك وحاولي أن تعرفي ما إذا كان هو يبادلك نفس الشعور. لا تحطمي حياتك لأنك تخافين من أن يؤلمك برفضه.»

ودعها جدها وأقفل الهاتف. ووضعت غابرييل السماعة ببطء، ثم ذهبت تحضر خرقة تمسح بها القهوة المسكوبة. جمدت يدها على المنضدة. هل من الممكن أن دويل يحبها إنما يجد الاعتراف بذلك صعباً؟ وفجأة أدركت أن عليها أن تبحث عن الحقيقة، فإذا كان هناك أمل فلن تضيّعه. إن عليها أن تذهب إلى دويل وتخبره عن شعورها نحوه بصراحة.

لم يكن الجو في لندن بأفضل من ذلك الذي خلفته وراءها في باريس. كان المطر يملأ الشوارع وتدفعه الرياح بين ثنايا معطفها الواقي من المطر. وكانت سيارة الأجرة قد أنزلتها عند بوابات مجمّع مباني حوض السفن، وها هي تسير الآن بحذر بين الحفر المليئة بماء المطر إلى أن وصلت إلى الباب الذي تقصده. لم يكن خارج المبنى أيّ إشارة تدل على مكان مكتب دويل، وإنما مجموعة تماثل ذلك المطبوع على البطاقة الصغيرة التي كانت تحملها بيدها.

نظرت حولها إلى الطريق الإسفلت المبتل، وإلى النهر الذي يجري مغطى بالزيت الرمادي اللون، وهي تحاول تمالك شجاعتها التي وصلت بها إلى هذا الحد، ولكن يبدو أن شجاعتها هذه قد فارقتها بعد أن وصلت إلى نهاية رحلتها. كيف بإمكانها أن تدخل فقط لكي تعلن له عن شعورها تاركة نفسها عرضة لكل أنواع الألم؟ لا بد أنها مجنونة حتى لمجرد التفكير في ذلك.

واستدارت لتعود أدراجها عندما انفتح الباب فجأة وخرج منه رجل. كان القلق باد على وجهه حين أخذ يمعن النظر في وجهها الشاحب.

«هل أنت بخير؟ لم أكن أقصد ترويعك.»

فارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة وهي تتراجع إلى الوراء. لم يكن يشبه دويل بتاتاً... إنما من ناحية أخرى، ذكرتها تصرفاته بدويل. فقد كانت لهما نفس الطريقة المباشرة في النظر إليها، ونفس الجوّ الآمر حولهما. لكنها كانت قد ابتدأت تجد الشبه بدويل في كل رجل تقابله بعد ان فارقها آخر مرة.

قالت بسرعة: «إنني بخير، صدقني، فالذنب ذنبي كما هو ذنبك.» فابتسم الرجل، ولكنه أخذ ينظر إليها باهتمام وهو يقول: «ما دام لم يصبك ضرر. هل كنت تبحثين عن دويل؟»

حولت نظراتها عن الرجل إلى الباب المغلق، إذن فإن دويل هناك. إن كل ما عليها أن تقوم به هو أن تدخل و... وسرعان ما كانت بقية شجاعتها تتبدد كالدخان في الهواء، فأسرعت بالابتعاد عن المكتب: «ان... هذا لا يهم... لا يهم حقاً.»

«لا تكوني غبية. ما دمت قطعت كل ذلك الطريق وفي يوم كهذا، فادخلي إذن.» وقبل أن تستمر في الاحتجاج، كان الرجل قد فتح الباب مشيراً إليها بالدخول، ثم صرخ: «هنا من يريد رؤيتك يا دويل.»

«سأخرج حالاً.»

فتملكها الذعر لدى سماعها صوته، ولكن ما أن استدارت تاركة المكان، حتى وجدت الرجل الغريب يسدّ الطريق أمامها ثم فات الوقت وهي ترى دويل فجأة امامها.

«غابي.» وبدا في صوته الدهشة.

«هممم... إذن فهذا هو الأمر؟ هل تريدني أن أبقى هنا، يا دويل؟»

فأجفلت غابرييل عندما سمعت الرجل يتكلم، فانتقلت نظرات دويل إليه على الفور وقد ذهب بعض القلق منه: «اخرج من هنا بسرعة، يا اورورك.»

«نعم يا سيدي المقدم.»

حوّلت غابرييل نظراتها عنه وأخذت تنظر في أنحاء الغرفة ذات الجدران الخضراء الشاحبة ومنضدة القهوة المنخفضة تحيط بها مقاعد منجدة بالجلد، وقد توخي فيها الفائدة قبل الجمال، والمكتب الماهوغانا الثقيل تعلوه معدات المكتب وكان فيها بابان أحدهما الذي ظهر منه دويل منذ دقائق. وفجأة شعرت غابرييل أنها لا تستطيع مواجهة هذه الورطة: «إنني آسفة إذا كنت...»

«هل أنت بخير؟ إنك...»

تكلم الاثنان في وقت واحد، ثم سكتا معاً فابتسم دويل ابتسامة صغيرة وهو يقول بهدوء: «تكلمي أنت أولاً يا غابي.»

فاشتدت قبضتا غابرييل على حقيبة يدها الجلدية: «كنت أريد فقط أن أقول إنني آسفة إذا كنت قد قطعت عليك أي شيء. لقد أصرّ عليّ ذلك الرجل بالدخول.»

«إنك لم تقاطعي شيئاً. وكان الحق معه في أن فعل ذلك فليس هناك معنى لمجيئك إلى هنا لتستديري عائدة من حيث أتيت.»

شعرت بالخجل، ثم أخذت تفتش عن شيء آخر تقوله تغطي بذلك شعورها بالعصبية. كان هذا الموقف أسوأ مما كانت توقعت: «هل هو يعمل عندك؟ أعني ذلك الرجل.»

رفع حاجبه وهو يتكىء إلى الجدار، مشبكاً ذراعيه فوق صدره.

«إذا كنت حقاً تريدين أن تعلمي فالجواب هو نعم،

ولا. إنه يشتغل عندي في مناسبات خاصة، ولكنه ليس موظفاً عندي. فهو متعامل حرّ. ولكنني لا أظن أنك جئت إلى هنا للتحدث عن أنظمة العمل عندي. أليس كذلك، يا غابي؟»

فحدقت فيه قائلة وقد كرهته لتهكمه هذا: «كلا، لم آت لهذا.»

«لماذا جئت إذن؟» لم يكن في لهجته أية رقة، ولا إشارة إلى أنه متشوق لسماع سبب مجيئها.

«لا بد أنك تعلم سبب مجيئي، إذ لم تتضح الأمور بيننا بعد، يا دويل.»

«إن هذا يعتمد على أشياء كثيرة يا غابي.» وألقى نظرة حوله ثم تقدم إلى ناحية الباب قائلاً: «الأفضل أن ندخل إلى مكتبي.»

فترددت غابرييل لحظة قصيرة، ثم اجتازت الغرفة غير ناظرة إلى دويل. ووقعت عيناها على لوحة الاسم المثبتة على الباب، ثم توقفت. ج.ج. دويل. ها هي ذي تأتي إلى هنا لتخبره أنها تحبه بينما لم تعرف اسمه الكامل بعد. لا بد أنها مجنونة.

«ما الذي هناك، يا غابي؟»

فاستدارت تحدّق فيه، وسألته مشيرة بإصبعها إلى لوحة الاسم تلك: «هذه. أتعلم أنني لم أعرف اسمك الكامل بعد؟ أليس هذا جنوناً؟ أن أكون لا أعرف سوى اسمك العائلي؟»

«ولكن الحب هو نوع من الجنون، أليس كذلك يا غابي؟ ليس هناك قياس أو سبب لشعورنا به. فهو يحدث فقط، ومن

ثم يوقع حياتنا في الفوضى والدمار. ولكنه أحلى أنواع الجنون، ألا تظنين ذلك؟»

لم تصدق انها تسمع منه هذه الكلمات بالذات ثم سمعته يتأوه بخشونة: «لماذا جئت يا غابرييل؟ أخبريني أرجوك.»

أهي كلمة أرجوك ما جعلت شجاعتها تعود إليها؟ نبرة الضعف في صوته العميق؟

ولكن هذه التساؤلات لم تشكل أي فرق، إذ سرعان ما انطلقت الكلمات التي طال انحباسها في داخلها.

«لأنني أحبك، يا دويل. أحبك إلى حد يكفي لكي آتي معبرة لك عن احساسي. إنني أحبك، أنا... أنا أحبك... لا شيء غير هذا.»

«وأنا أحبك، يا غابي أحبك أكثر مما كنت أتصور أن من الممكن أن أحب أحداً.»

واغرورقت عينا غابرييل بالدموع فإذا بكل مخاوفها وكل آلامها تتلاشى.

«كنت خائفاً، يا غابي... خائفاً من أن لا تأتي وأنني كنت مخطئاً في استنتاجاتي. ولشدّ ما تملكني القلق عندما اختفيت. لقد أدركت أن الذنب في ذلك هو ذنبي. وأنني أنا الذي دفعتك إليه.»

«لماذا عاملتني اذا بتلك القسوة؟»

«لقد أثار سخطي رفضك الزواج مني. لا أظنني اعترفت لنفسي تماماً بما أشعر به نحوك، ولم أدرك أن محاولتي إرغامك على الزواج مني كان من جانبي تصرفاً يقرب من الاستماتة. ثم إذا بك تهربين دون أن أستطيع العثور عليك

في البداية. ولكن بعد أن علمت بمكان وجودك وذهبت لرؤيتك، كل شيء أصبح واضحاً، شعوري وأملي. بقيت أقلب الأمر في ذهني، لأقنع نفسي بأنني كنت مصيباً في رأيي بأنك كنت تحبينني، ولكنني أدركت أن عليّ أن أعطيك مجالاً تتخذين فيه قرارك. ثم كان قدومي إلى هذا المكان آملاً وراجياً بأن تتبعيني، والذي كان أصعب شيء قمت به في حياتي.»

كان في صوته ألم عميق جعلها تحدق فيه قائلة: «لم أشأ أن تشعر مكرهاً بأن عليك أن تقوم بشيء. كنت أحبك ولكنني كنت أعلم أنك لا تحبني. فلم أردك أن تكون مرغماً على أن تقوم بأي نوع من الالتزام.»

«غابي، لقد كنت مجنوناً بك، وذلك منذ اللحظة التي رأيتك فيها لأول مرة. لقد كان جدك قد أخبرني عنك باختصار وعن مبلغ قلقه عليك لتبديدك حياتك هباء. ولكنني لم أنتظر قط أن تكوني إلى هذا الحد الفائق من العناد.»

ضحك وتابع: «كل عمل طلبت منك القيام به، كنت ترفضينه. كان لديك الكثير من الشجاعة والتصميم. وسرعان ما أدركت أنك لست كما سبق وتصورتك مما ملأني خوفاً لأنني علمت، حتى في ذلك الحين، أنك أصبحت في غاية الأهمية بالنسبة إليّ. فأنا قد احترقت مرة ولا أريد أن أحترق مرة أخرى.»

«أنت تتحدث عن زوجتك السابقة، حدثني عنها يا دويل.»

فبدت الصرامة على ملامحه فجأة: «كانت غنية، مدللة،

عنيدة، أنانية... آه كانت هناك أخطاء من الجانبين كما يحدث عادة في أكثر الزيجات الفاشلة. أسوأ ما في الأمر أننا نحن الاثنين، قد انجذب الواحد منا إلى الآخر لشكله الخارجي وليس لشخصيته الحقيقية وراء ذلك، لقد قابلت ايلين في حفلة عشاء دبلوماسية فجذبتها بزتي العسكرية أكثر مما جذبها الشخص الذي يرتديها، بينما رأيتها أنا امرأة ذات خبرة وبالغة الجمال.»

فسألته وقد بدت الغيرة في صوتها: «هل بقيتما متزوجين مدة طويلة؟»

فتمتم بكلمات مبهمة واشار اليها بالجلوس على أريكة جلدية: «لا تغاري، يا غابي. كان ذلك منذ وقت طويل وأنا لا أفكر في ايلين الآن. ولكن الجواب على سؤالك هو اننا اعترفنا بفشل زواجنا قبل أن تمرّ سنة عليه. وأكون كاذباً إذا أنا قلت إن ذلك لم يؤثر على تفكيري، ولكنه أصبح الآن من الماضي بحيث لم أعد أهتم به. إنك لا تشبهين ايلين بشيء وأنا لا أقارنك بها.»

«إنني مسرورة. ولكن ما يؤلمني جداً هو أنك ما زلت تفكر فيها.» وبدت الغيرة في عيني غابرييل ما جعل دويل يضحك قائلاً: «وكيف أفكر في أي شيء آخر وأنت من أحب وأريد؟ إنك ستتزوجينني يا غابي، أليس كذلك؟»

«هذا يعتمد على أشياء.» لقد جاء دورها لتغيظه الآن، مجرد عقوبة صغيرة للعذاب الذي سببه لها.

«يعتمد على ماذا؟ اسمعي أنا أعلم بأنني لست بثراء أسرتك، ولكنني أُعتبر رجلاً ثرياً، يا غابرييل. فالشركة تزداد قوة على الدوام.»

فقالت باسمة: «يا له من عرض للزواج. لا أظنك ستعرض عليّ مبلغاً يساعدك على اقناعي بالقبول. دعنا نوضح هذا الأمر، يا دويل. إنك أنت من أحب، وليست إمكانياتك المادية، فالمال لم يكن قط في اعتباري يوماً ما. كما سبق وقلت أنت من قبل، بإمكاني أن اتزوج من الرجال الأثرياء والممتازين، لكن اخترتك لأنني أحبك. هل فهمت؟»

«أظن ابتدأت أفهم. ما هي المشكلة إذن؟»

«المشكلة هي كيف أتزوجك بينما لا أعرف من أنت حقاً؟ ماذا يعني الحرفان ج.ج؟»

«جون جايمس. هل ارتحت؟»

«تقريباً.»

ففهم حالاً ما تعنيه: «إذن، فعلينا ان نبحث في ترتيبات حفلة الزفاف.»

«هممم...» تفاجآ من هذا الصوت، ونظرت غابرييل نحو الرجل الذي كان استقبلها عند قدومها، فقال له دويل: «إنك دوماً تظهر في الوقت غير المناسب يا أورورك.»

فارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة وقال.

«آه، ليس لك أن تقول ذلك، يا سيدي. فأنا لا أظهر إلا في الوقت المناسب. وذلك كي اكون اول شخص يهنئكما ويتمنى لكما السعادة الدائمة.»

ولوّح لهما بيده، ثم غادر الغرفة ونظرت غابرييل إلى دويل وقالت: «هل عندك الكثير مثله هنا؟»

فابتسم وأجاب: «لا تسألي، يا غابي ولنقل فقط أن أورورك هو واحد من كثيرين ستتعرفين إليهم في أقرب وقت.»

فضحكت للاشمئزاز الذي بدا على وجهه. ألا يستحق زواجنا احتفالاً؟»

«أوافقك على ذلك. ولكن لديّ فكرة عن شكل احتفال أفضل في منزل جدي.»

«لا عجب في أنني وقعت في حبك، يا غابي.»

تمت

www.eromancia.com
مـــرمـــوريـــة